شرح كتاب النصيحة المختصرة

للإمام

أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن علي بن حاتم

ابن الحبَّال البعلي

(٦٧٢ ـ ٧٤٤ هـ)

- رحمه الله -

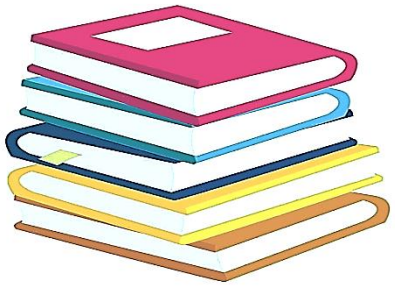

لفضيلة الشيخ /

أ.د: سُلَيْمَان الرحيلي

- حَفِظَهُ اللهُ -

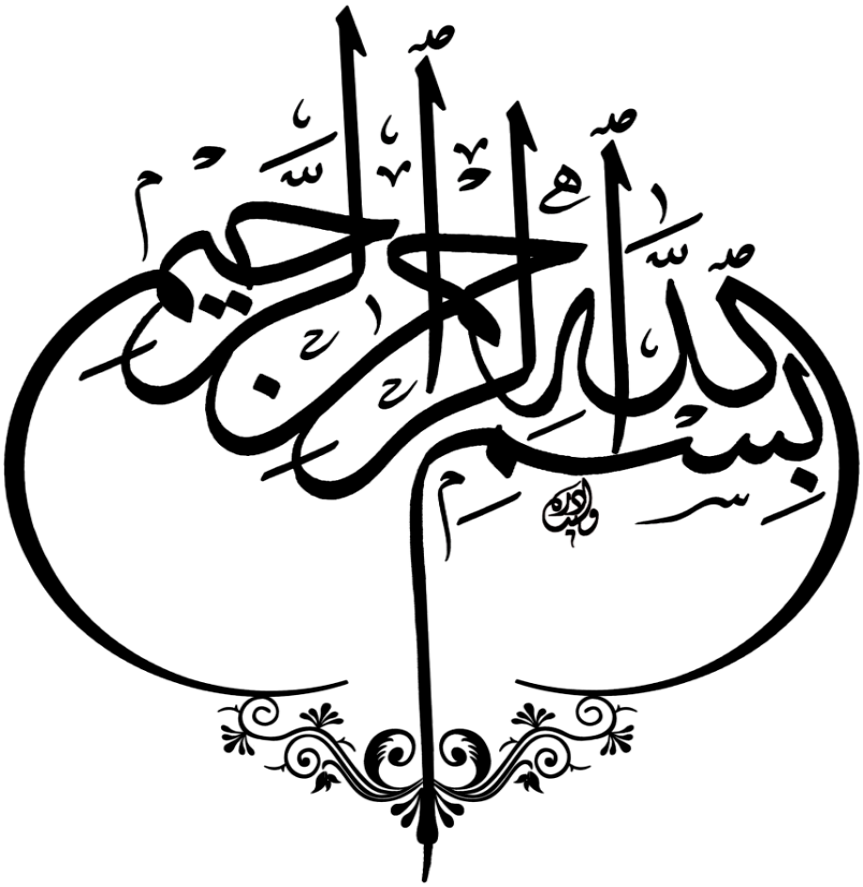
بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بَعْد؛

فإن أحسنَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرَ الأمورِ محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النَّار.

ثم يا معاشر الفضلاء إن الإنسان لا يستقيم حاله ولا يهدأ قلبه إلا بصلاح دينه، وصلاح دنياه، وصلاح أخراه. والإنسان إنما يستعين علىٰ هذا المقصود الأعظم بأمور ثلاثة:

الأمر الْأَوَّلُ: بِالدُّعَاءِ؛ وقد كان نَبِيُّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ الَّتي فِيهَا معاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي الَّتي فِيهَا معادِي».

الأمر الثَّانِي: العلم النافع؛ فالعلم النافع شجرة كل خير، كما أن الجهل شجرة كل شر.

الأمر الثَّالِث: الاستماع للنصائح والوصايا من أهلها.

كل هذه الثلاثة في توحيد وعزيمة علىٰ العمل الصالح، فمن لزم ذلك أمن الخسران وكان من أهل الفلاح بإذن الرحمن، كما قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وإن من أنفع الوصايا والنصائح وأجملها وأكملها نصائح علماء أهل السُّنَّة، ومن تلك النصائح الجميلة النافعة النصيحة التي بين أيدينا لعالم من علماء الأمة تتلمذ علىٰ يد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وكتب هذه النصيحة في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. ذلك العالم هو إبراهيم بن عبد الرحيم البعلي أبو إسحاق بن الحبال الحنبلي، المتوفىٰ سنة أربعٍ وأربعين بعد السبعمائة (٧٤٤) من هجرة نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا العالم لم نجد له ترجمة مفصلة، وإنما تُرجم له باختصار، ويظهر من هذه النصيحة أنه عالم من العُلَمَاء، وأنه ممن يُرجع إليهم ويُقصدون بالسؤال وطلب النصح، وأن له طلابًا. إلا أنه لم يُترجم له إلا ترجمة مختصرة.

وهذا يعطينا معاشر طلاب العلم درسًا في سيرنا إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ وهو أننا في طلبنا العلم ونشرنا العلم ينبغي أن نريد وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا أن نحرص علىٰ الظهور، وعلىٰ الشهرة، وعلىٰ المعرفة، فالله أعلم بما يصلح لعبده. فلربما كانت الشهرة مهلكة للعبد، ولربما كان خمول الذِّكْر مصلحة للعبد. فكم من شخص خامد ذكره عند الناس مذكور في الملأ الأعلىٰ، وكم من شخص مشهور عند الناس مذموم في الملأ الأعلىٰ.

فيا طالب العلم! ويا مقدم العلم! احرص علىٰ أن تنتفع بالعلم، وعلىٰ أن تنفع الناس بعلمك، ولو أن تنفع شخصًا واحدًا، ولا يكن همك الظهور والشهرة.

هذه النصيحة اخترت شرحها في هذا الوقت لسببين رئيسين:

السبب الْأَوَّلُ: أني تأملت حال الأمة في هذه الأيام وما يُطرح علىٰ مسامعها في وسائل التواصل الاجتماعي، فرأيت حاجة الأمة شديدة جدًّا لمثل هذه النصيحة العظيمة النافعة الغالية.

السبب الثَّانِي: أني رأيت من المناسب جدًّا أن نختم العام الدراسي ونستقبل الإجازة بهذه النصيحة العظيمة، ولا سيما أن أكثر المشايخ يوقفون دروسهم في الإجازة، فيجد طالب العلم فراغًا في وقته. فهذه النصيحة والوصية مناسبة جدًّا لطرحها في هذا الوقت، وسأشرحها إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ في مجلسين: اليوم، وغدًا.

وهذه النصيحة سميت بالنصيحة المختصة أخذًا من عبارة قالها المصنف بهذا اللَّفْظ: (هذه النصيحة المختصة). ويظهر لي واللهُ أَعْلَمُ أن لوصفها بالمختصة وجوهًا ثلاثة:

أما الوجه الأول فهو أن هذه النصيحة تقابل النصيحة العامة من جهة محتواها ومضمونها، فإن النصيحة العامة في الغالب تكون مجملة؛ كأن يُنصح ويوصىٰ بتقوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ. أما هذه النصيحة المختصة ففيها تفصيل لأهم المهمات التي ينبغي أن يُنصح بها، فهي مختصة من جهة كونها تقابل النصيحة العامة من جهة المضمون.

والوجه الثاني أن هذه النصيحة مختصة من جهة أنها تقابل النصيحة العامة من جهة المخاطب بها أو المنصوح، فإن النصيحة العامة يُخاطب بها العموم، وهذه النصيحة إنما خاطب بها الشيخ شخصًا بعينه، وإن كان محتواها يصلح لكل واحد منا، ولكل مسلم، لكنها وُجِّهت إلىٰ شخص مخصوص.

والوجه الثالث يشبه الثاني لكنه أقرب منه، أعني أخص منه، وهو أن هذه الوصية وُجهت لشخص مخصوص يعلم الشيخ حاله، وما يحتاج أن يُنصح به، فوجه الشيخ هذه النصيحة له بخصوصه لعلمه بحاله.

والنصيحة المختصة منهج نبوي، فإن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأتيه الرجل فيقول: (أوصني) فيوصيه. وتختلف عبارات النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوصايا، ومن أوجه توجيه ذلك أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراعي حال الموصىٰ، فيوصي كل أحد بحسب حاله وما يحتاج إليه.

فنبدأ في قراءة هذه الوصية النافعة ونعلق عليها بما نظن أنه يجملها ويكملها ويزيد النفع بها من غير تفصيل زائد ولا زيادة تخرج عن المقصود.

فيتفضل القارئ بارك الله فيه يقرأ لنا:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ عبده ورسوله نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ. اللهم اغفر لنا ولشيخنا ووالدينا والمسلمين أَجْمَعِيْنَ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الشرح)

هذه النصيحة يا إخوة يبدو لي واللهُ أَعْلَمُ أن الشيخ أملاها علىٰ ولده، وكتبها ولده ليوجهها نصيحة لطالب من طلابه، فالمملي الشيخ، والكاتب بإملاء الشيخ ولد الشيخ، وهو من طلاب الشيخ. والمقصود أن تُوجه إلىٰ طالب من طلاب الشيخ علم الشيخ حاله وأنه يحتاج إلىٰ نصح.

وبدأها الشيخ بـ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) لأنها تُكتب، وقد استُقرِأت كتب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوُجِدت كلها مبدوءة بـ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). فمن السنة أن يبدأ المكتوب بالبسملة. كذلك يقتدي العلماء بصنيع الصحابة في كتابة المصحف، فإنهم عندما كتبوا المصحف بدأوا بـ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، والتحقيق أن (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) في المصحف آية مستقلة، ليست جزءًا من السورة التي هي في أولها، وليست خارجة عن الآيات؛ لأن الصحابة ما كتبوا في المصاحف إلا القرآن. فاقتداءً بفعل النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتبه التي كانت تُكتب

بأمره وبصنيع الصحابة رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمِ في كتابة المصحف بدأ المصنف هذه الرسالة بالبسملة.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

(الشرح)

بدأ المصنف بالبسملة مستعينًا ومتبركًا بالله عَزَّ وَجَلَّ. ثم بدأ كلامه بالتسليم لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه لا قدرة علىٰ التحول من حال إلىٰ حال ولا علىٰ قول خير أو فعل خير إلا بعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فلا حول ولا قوة إلا بالله. لا قدرة علىٰ العبد أن يتحول من حال إلىٰ حال إلا بعون الله عَزَّ وَجَلَّ. ولا تحول في الحقيقة إلا بإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولذلك شُرع لنا إذا سمعنا المؤذن يقول: (حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح) أن نقول: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ قوة؛ أي لا تحول لنا من الاشتغال بالدنيا أو بغير الصلاة إلىٰ الاشتغال بالصلاة إلا بعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا قدرة لنا علىٰ هذا التحول إلا بعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فهو سُبْحَانَهُ العزيز الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي له العزة كلها، عزة القوة وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فهو سُبْحَانَهُ القوي المتين، الغني بذاته، الغالب لكل الكائنات، وهو سُبْحَانَهُ الحكيم ذو الحكمة الشاملة العليا الكاملة في خلقه وشرعه، وله الحكم في الآخرة والأولىٰ، وهو المحكم للأشياء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن عرف معنىٰ اسم الله العزيز، واسم الله الحكيم أثمر ذلك في قلبه قوة يقين، وقوة توكل علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وحرص علىٰ الاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ في الأمور كلها.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وهو حسبنا ونعم الوكيل

(الشرح)

أي أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي نتوكل عليه، ومن توكل علىٰ الله فهو حسبه، والحسب هو الكافي. فالمعنىٰ أن نتوكل علىٰ ربنا، وإذا توكلنا علىٰ ربنا كفانا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذه جملة عظيمة، فقد روىٰ البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، قالَهَا إبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالَهَا مُحَمَّدٌ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّم حِينَ قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣]». كلمة عظيمة تقال عند الشدة، والمُوحد إذا جاءت الشدائد لجأ إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ كما يلجأ إلىٰ الله في الرخاء. حسبه الله وكفىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فإذا جاءت شدة قَالَ: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ كما قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلك الشدة العظيمة، وكما قالها النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الشدة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

(المتن)

الحَمْدُ للهِ نستعينه ونستهديه ونستغفره

(الشرح)

حمد الله عَزَّ وَجَلَّ هو ذِكر المحامد كلها لله عَزَّ وَجَلَّ، مع المحبة والتعظيم والإجلال. أن تذكر صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، وأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، وأفعال الله عَزَّ وَجَلَّ، وشرع الله عَزَّ وَجَلَّ، مع المحبة لله والإجلال والتعظيم، وتستعين بالله عَزَّ وَجَلَّ وتطلب منه الهداية. وهذا تحصيل للخير. وتستغفر الله وهذا سلامة من الشر. وإذا هُدي الإنسان إلىٰ الخير فكان من أهله وسلم من الشر فحُفظ منه قبل فعله وغُفر له بعد فعله صار خفيف الظهر في سيره إلىٰ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ:

(المتن)

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا

(الشرح)

هذه استعاذة بالله عَزَّ وَجَلَّ ولجوء إلىٰ الله من الشرور، وأقربها شرور النفس، وسيئات الأعمال، أعمال الإنسان. إذن العبد استغفر ربه لما وقع من ذنبه، واستعاذ بالله عَزَّ وَجَلَّ ولجأ إليه من الشر. فيسأل الله حفظه من الشر قبل وقوعه، ومغفرة الذنب له بعد وقوعه.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ونشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وأن محمدًا عبده ورسوله، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وعَلَىٰ آله وَسَلَّمَ تسليمًا كَثِيْرًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ أيها الأخ العزيز

(الشرح)

بدأ المصنف بهذه العبارة الجالبة للقلب. شيخ يقول لتلميذه: أيها الأخ العزيز. فوصفه بكونه أخًا، ووصفه بكونه عزيزًا عليه، فله عنده مكان خاصة. وهذا من فقه النصيحة، أن تخاطب المنصوح بعبارة تجذب قلبه. وهذه طريقة العلماء إذا وجهوا النصيحة، فهذا من فقه النص.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

أعاننا الله وإياك علىٰ حفظ قلوبنا وجوارحنا

(الشرح)

ثم أتبع هذا الخطاب الرقيق المرقق للقلب بدعاء مناسب: (أعاننا الله وإياك علىٰ حفظ قلوبنا وجوارحنا) وهذا أيضًا من فقه النصيحة. ولذلك تجد العلماء إذا نصحوا يقولون مثلًا: اعلم رحمني الله وإياك، اعلم هداني الله وإياك؛ ونحو هٰذَا. وهذه النصيحة لُبُّها حفظ القلوب والجوارح، فناسب هذا الدعاء مضمون هذه النصيحة، أعاننا الله وإياك علىٰ حفظ قلوبنا وجوارحنا. كما أن فيها التنبيه علىٰ أهمية الْدُّعَاء، وعلىٰ أن العبد لا يستغني عن ربه أبدًا. عند تحصيلك العلم كن داعيًا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عند سماعك النصيحة كن داعيًا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنك لا تستغني عن

ربك طرفة عين، ولن ينفعك علم ولا نصح إلا إذا أعانك الله. فوالله لولا الله ما اهتدينا، ولا صمنا ولا صلينا. فالمصنف رَحِمَهُ اللهُ الناصح هنا يشير إلىٰ هذا بهذه الدعوة المباركة في صدر النصيحة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فإن الدين النصيحة، كما ثبت في الحديث الصحيح.

(الشرح)

روىٰ مسلم عن تميم الداري أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدينُ النصيحةُ، الدينُ النصيحةُ، الدينُ النصيحةُ. قالوا: لمَن يا رسولَ اللهِ؟ قال: للهِ، وكتابِه، ورسولِه، وأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم». النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرر الجملة ثلاثًا لمزيد الاهتمام بها، وهذا أسلوب حصر، فحصر الدين في النصيحة؛ لأن النصيحة هي الشيء الخالص، فالدين كله خالص.

(قالوا: لِمَن يا رسولَ للهِ؟ قال: للهِ) نعم النصيحة لله أن توحد الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن تخلص له، وأن تستسلم له. النصيحة لله أن توحد الله، وأن تخلص له في أقوالك وأعمالك، وأن تستسلم له، إذا جاءك الأمر من الله لا تكون لك خيرة، ولا تقول لماذا، ولا تقول أريد أن أقتنع، يكفيك أن تعلم أنك تعبد الله بهذا، وأن ربك هو الذي أمرك بهذا. وإذا جاءك النهي من الله عَزَّ وَجَلَّ ما تتردد ولا تقول أنظر في أمري، بل تبادر إلىٰ الامتثال. والنصيحة لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نحبه أكثر من أنفسنا والناس أَجْمَعِيْنَ، وأن نؤمن به، وأن نطيعه فيما أمر، وأن نجتنب ما نهىٰ عنه وزجر، وأن نصدقه فيما أخبر، وأن نعلم أن طريق الجنة بعد بعثته مسدود إلا من جهته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنصيحة لأئمة المسلمين -وأئمة المسلمين هم الحكام، الحاكم الأعلىٰ في البلد- تكون بالوفاء ببيعتهم والسمع والطاعة لهم في غير معصية الله، والثناء عليهم بما فيهم، تأليفًا للقلوب عليهم، وعدم الكذب في مدحهم. أهل السنة والجماعة من طريقتهم أنهم يثنون علىٰ الحاكم بما

فيه؛ لأن المقصود هو تأليف القلوب، وجمع قلوب العامة علىٰ ولي الأمر، لكنهم لا يكذبون للحاكم، ولا يكذبون في المدح؛ لأن هذا غش في الحقيقة وليس نصحًا.

ويكون نصح ولاة الأمور أيْضًا بإيصال الخير إليهم بالطرق المشروعة. إذا رُؤيت مخالفة أو تقصير يُنصحون لكن سرًا بما يحفظ هيبتهم. والنصيحة للعامة أن تريد الخير لهم، وأن تدلهم عليه. فيكون منطلقك في النصح إرادة الخير، وتحرص علىٰ أن تدلهم علىٰ الخير. ومن أعظم وسائل ذلك نشر العلم النافع، أن تنشر العلم النافع، سواء كان عندك أو تنشر كلام أهل العلم بين الناس، فإن هذا من النصيحة العظيمة لعامة المُسْلِمِيْنَ، لا سيما في زماننا الذي نرىٰ فيه أهل الباطل يجتهدون اجتهادًا كبيرًا في نشر كلامهم. وهذا في الحقيقة فعلهم غش للعامة، فينبغي أن نقابله بالنصح للعامة، بنشر العلم النافع ونشر مقاطع علمائنا الكبار، والحرص علىٰ تقويتها، وعلىٰ إيصالها لأكبر عدد ممكن من الناس.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وقد علمت ما أؤثره لك من الخير وأرجوه لك من تمام الأمر

(الشرح)

أن تظهر للمنصوح أنك إنما تنطلق من محبة الخير له، لا تريد تعنيفه، ولا تريد تبكيته، ولكنك تريد الخير له. وهذا ما فعله المصنف الناصح رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فبين له ما يكنه في قلبه له، وما يريده له من تمام الأمر.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ولا حول ولا قوة إلا بالله. وأبواب النصائح متعددة، والأمر بلزوم حقائق التقوىٰ كلمة جامعة.

(الشرح)

هذه النصيحة العامة. النصيحة العامة تكون مجملة كالأمر بتقوىٰ الله أو النصيحة بتقوىٰ الله وحفظ الوقت ونحو هذا.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

غير أنني فهمت من أحوالك الباطنة والظاهرة ما أكد عندي أن أدخل معك في طرف من التفصيل.

(الشرح)

وهذه النصيحة المختصة، هذا الذي ذكرنا أنه وجه من أوجه كون النصيحة مختصة، أن النصيحة العامة تكون مجملة، وأن النصيحة المختصة تكون فيها شيء من التفصيل. كما أنها تكون موجهة لشخص بعينه كما أنها قد تكون موجهة لشخص يعلم الناصح أمورًا معينة يحتاج أن يُنصح فيها.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ومنه نسأل أن يوفقنا جميعًا لاقتفاء منهج الدليل صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(الشرح)

هنا يشير المصنف الناصح إلىٰ مصدر نصيحته، وهو كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك قَالَ: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. الله عَزَّ وَجَلَّ يهدي السبيل هداية إرشاد وهداية توفيق. فالله بالوحي أرشد عباده، وهو الذي يهدي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هداية التوفيق. (ومنه نسأل أن يوفقنا جميعًا) يعني الناصح والمنصوح، (لاقتفاء منهج الدليل صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فسمي النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دليلًا؛ لأن الدليل هو الهادي إلىٰ الطريق. والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الهادي إلىٰ الصراط المستقيم هداية دلالة وإرشاد. كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

فالله عَزَّ وَجَلَّ يهدي هداية توفيق وهداية إرشاد، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدي إلىٰ صراط الله المستقيم هداية دلالة وإرشاد. ففيه معنىٰ الدليل؛ لأنه كما قلنا الدليل هو الهادي إلىٰ الطريق. وفي هذا إشارة إلىٰ أن مصدر هذه النصيحة إنما هو الكتاب والسنة.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وأن يحمينا من كل ما يوجب الخسارة في الدنيا والآخرة إنه جواد كريم.

أما أولًا:

فإن من أعز الأشياء قلبَك ووقتَك

(الشرح)

الله أكبر! أعز شيء عند الإنسان قلبه ووقته. والله إنه أغلىٰ من الكنوز، وأغلىٰ من الأموال وأنفع من الكنوز أعني حفظ الوقت والقلب. وأنفع من الأموال. القلب أصل الصلاح، هو ملك والجوارح والأعضاء جنوده. ولذلك قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي القَلْبُ» متفق عليه.

القلب هو الأصل فإن صلح صلح سائر الجسد، وصلح العمل، وإن فسد فسد سائر الجسد، وفسد العمل. فالعمل كأنه في إناء، إن صلح أسفله صلح أعلاه، وإن فسد أسفله فسد أعلاه. وقد ورد في معنىٰ هذا حديث عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء في صحيح مسلم قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ أَجْسامِكُمْ، ولا إلىٰ صُورِكُمْ، ولكنْ ينظرُ إلىٰ قُلوبِكُمْ». التقوىٰ ليست بالأجساد، وليست بالصور، هذا جميل وهذا دونه في الجمال، وإنما بالتقوىٰ. الكرم ليس بالأجساد، وليس بالألوان، وليس بالجمال. الكرم بالتقوىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي رواية عند مسلم: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلىٰ صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلىٰ قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ». وهنا انظروا! القلوب ينظر الله إليها لأنها الأصل، والأعمال وعاؤها الوقت، والوقت

رأس المال، ووعاء الأقوال والأفعال، وهو لا يُشترىٰ ولا يُباع. ذُكر أن أحد العلماء في الشام مر بقوم بعد العصر يلعبون الطاولة، لعبة الطاولة وهي النرد، وهي محرمة، ومنتشرة بين بعض المسلمين في بعض البلدان. مر عليهم وهم يلعبون النرد، كل يوم العصر يجتمعون في مكان ويلعبون الطاولة، فقال: (لو كان الوقت يُشترىٰ لاشتريت أوقاتكم) هذه الأوقات التي عندكم ضائعة لو كان الوقت يشترىٰ لاشتريت هذا الوقت منكم بالأموال لكنه لا يباع ولا يشترىٰ، ولا يتوقف، لا يتوقف فهو أغلىٰ من الذهب، وإن لم تغتنمه ذهب، بل هو الحياة.

ولنفاسته أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ به علىٰ المهمات في القرآن، وقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وسيُسأل عنه الإنسان يوم القيامة، فلن تزولا قدم ابن آدم يوم القيامة حتىٰ يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه؛ كما عند الترمذي وحسنه الألباني. ولذلك قال العلماء إن إضاعة الوقت أشد من الموت، إن إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، أما الموت فيقطعك عن الدنيا.

وكان السلف يحرصون علىٰ أوقاتهم أشد من حرص أهل الأموال علىٰ أموالهم، وكان السلف يكرهون أن يقعد الإنسان فارغًا. قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إِنِي لَأَكْرَهُ أَنْ أرىٰ الرجلَ فارِغًا لا في عمَلِ دُنْيَا ولَا آخرَةٍ).

فأعظم ما ينبغي أن تحفظه قلبك، وحفظه يكون بأن لا تورد عليه إلا خيرًا. جالس أهل السُّنَّة، واستمع لكلام أهل السنة، وادخل مواقع أهل السنة، وإياك وقاذورات الأفكار. إياك أن تجالس أهل البدع مجالسة استماع ومخالطة، إياك أن تدخل مواقعهم ولو من باب الفضول، فإن القلب ينبغي أن يُحفظ. وأعظم ما يُحفظ به القلب بعد اللجوء إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ العلم.

اعْلَمْ هُدِيتَ أَنَّ أَفْضَلَ الْمِنَنْ .. عِلْمٌ يُزِيلُ الشَّكَّ عَنْكَ وَالدَّرَنْ

احفظ قلبك واحفظ وقتك، اجعله فيما يصلح دنياك ويصلح أخراك، واجعل الآخرة الأولىٰ، وإياك أن تلهيك الدنيا عن الأخرىٰ. فإذا حفظته عشت سعيدًا وكنت لله وليًا.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فإذا لم تحفظ قلبك عن الاشتغال بالخطوط الفانية

(الشرح)

هنا يشير إلىٰ الإرادات؛ اجعل قلبك دائمًا في إرادات المعالي، دائمًا اجعل في قلبك إرادة الأمور العالية، وأعظم ذلك أن ترضي الله، وأن تصل إلىٰ أن ترىٰ وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن تكون من أهل الفردوس الأعلىٰ. وطهر قلبك من الإرادات الفاسدة، من إرادة مدح الناس، من إرادة ثناء الناس، من إرادة الدنيا بما تُراد به الآخرة، وتَعَالَىٰ بقلبك عن الإرادات الصغيرة والسفاسف من الحظوظ الفانية التي لا تحتاج إليها. أما ما تحتاج إليه لإصلاح دنياك فهذا أمر محمود.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وتستعمل وقتك فيما يوجب لك الترقي بقوة الله إلىٰ الدرجات العالية، ضاعت فوائدك وفاتت مقاصدك.

(الشرح)

إذا ضيع الإنسان قلبه ذهب عنه الصلاح. إذا سمحت لقاذورات الأفكار والآراء أن تتسلل إلىٰ قلبك ستبدأ في الانحراف والاتجاه إلىٰ أهل الفساد. وإياك أن تقول أنا وأنا، وأنا درست عند المشايخ، وأنا وأنا وأنا، فكم من مغتر بهذا ذهب إلىٰ أهل البدع فأنشب فيه أهل البدع أظافرهم، وأدخلوا فيه أفكارهم وحرفوه. إذا لم تحفظ وقتك ضاعت مقاصدك، ولذلك كان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ يتمثل بهذين البيتين:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَىٰ لَكَ لَازِمُ

وسعيكُ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

إذا كان الإنسان يضيع وقته، نهاره في سهو وغفلة عما ينفعه، وليله في نوم، والموت قادم ولا بد. وهذا الوقت جزء من عمر الإنسان. وإذا كان الإنسان يسعىٰ فيما سيندم أنه سعىٰ إليه فإنه في الحقيقة ما رفع نفسه عن قدر البهائم. بل البهائم أحسن منه؛ لأنها خُلقت لهذا، أما هو فلم يُخلق لهذا. فمن ضيع قلبه وفتح باب قلبه لكل واردة وضيع وقته ضاعت فوائده، وفاتت مقاصده، وباء بالخسران كما يأتي إِنْ شَاءَ اللهُ.

(المتن)

وفي الحديث النبوي المعروف قوله صلىٰ الله عليه وسلم: "اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، ودنياك قبل آخرتك".

(الشرح)

هذا الحديث رواه ابن المبارك في الزهد، والنسائي في الكبرىٰ، والبيهقي مرسلًا. عن عمرو بن ميمون قَالَ: (قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ورواه الحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: (قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. الحديث). وقال: (صحيح علىٰ شرط الشيخين). ووافقه الذهبي وصححه الألباني، وليس عند الجميع: (ودنياك قبل آخرتك)، وإنما الخامسة: (وغناك قبل فقرك). والمصنف رَحِمَهُ اللهُ يملي من حفظه، هذه الجملة لم ترد عند الجميع: (ودنياك قبل آخرتك)، وَإِنَّمَا: (وغناك قبل فقرك).

(اغتنم) الاغتنام يا إخوة هو المبادرة إلىٰ الاستفادة في الخير، المبادرة إلىٰ الاستفادة من حال القوة في الخير. والله خلق الإنسان ينتقل من قوة إلىٰ ضعف، وقد يتنقل بين ضعف وقوة. الله خلق الإنسان ينتقل من قوة إلىٰ ضعف، يكون شابًا، ثم يستوي علىٰ أشده، ثم يضعف. وكم من شخص عندما بلغ الخمسين ندم أنه لم يغتنم ما كان قبل ذلك. وقد يتقلب الإنسان بين الضعف والقوة في حال الصحة والمرض، يمرض حينًا ويصح، ويمرض حينًا ويصح. وقد يصاب بمرض دائم.

والإنسان ينبغي أن يغتنم حال القوة قبل حال الضعف، في الإكثار من الأعمال الصالحة والأقوال الحسنة؛ وذلك لأمرين عظيمين هما الغنيمة حقًا.

أما الأمر اَلْأَوَّلُ: فهو كثرة الحسنات، عندما تكثر من الأعمال الصالحة في حال قوتك والأقوال الحسنة في حال قوتك فإن حسناتك تكثر، والحسنات تُوزن يوم القيامة، وإذا رجحت الحسنات علىٰ السيئات دخل الإنسان الجنة.

الأمر الثَّانِي: أنك إذا اغتنمت حال القوة في الأعمال الصالحة والأقوال الحسنة أثبت الله لك أجرها في حال الضعف، ولو لم تعملها. إذا كنت تقوم الليل في حال القوة ثم ضعفت عن ذلك أو عن وردك إلىٰ أقل منه فإن الله يثبت لك أجر ما كنت تقومه حال القوة. «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ له مِثْلُ ما كانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»، كما عند البخاري في الصحيح.

فأنت يا عبد الله إذا اغتنمت حال القوة ثم أصابك الضعف لن ينقطع عملك الصالح، بل سيثبت الله لك أجر ما كنت تعمل قويًا صحيحًا وهذه غنيمة عظيمة. بعض الناس قد يقضي علىٰ فراشه مشلولًا عشرين سنة، وقد رأينا هذا بأم أعيننا، مشلول ما يحرك إلا عينيه، لكنه كان معروفًا بالعبادة، فهذا يثبت الله له أجر ما كان يعمل قبل أن يصاب بالشلل طوال هذه العشرين سنة، حتىٰ يموت؛ لأنه كان يعمل تلك الأعمال الصالحة. فهذه غنيمة عظيمة يا إخوة، فينبغي علىٰ الإنسان إذا رزقه الله قوة أن يغتنمها. وإذا فتح الله لك باب خير فادخل، فإنك لا تدري لعلك أن تعجز أو يغلق. لا تسوف، فُتح لك باب خير ادخل واغتنم ولا تسوف؛ لأنك ما تدري ربما أنت الآن قادر وغدًا تعجز ما تستطيع، أو يغلق الباب فلا تستطيع.

(اغتنمْ خمسًا قبلَ خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِكَ) اغتنم فترة الشباب قبل أن تصبح هرمًا، والإنسان إذا كبر سنه يضعف عن كثير من الأمور.

(وصحَّتَكَ قبلَ سقمِكَ) قبل مرضك.

(وفراغكَ قبل شُغلِكَ) وهذا وجه الشاهد هنا، أن تحفظ الفراغ بأن تجعله في الأعمال الصالحة والأقوال الحسنة. والإنسان كلما تقدمت به السن تزيد مشاغله. وليس المقصود يا إخوة

أن يكون الإنسان فارغًا من كل شيء فإن هذا لا يكاد يكون، لكن المقصود إذا كنت فارغًا بحيث تستطيع أن تعمل الأعمال الصالحة وتقول الأقوال الحسنة. والعلماء يحذرون من قضية العائق الوحيد؛ لأن بعض الناس يريد أن يكون متفرغًا. فإذا وجد شيئًا قال: إذا انتهيت من هذا سأفعل. قال: متىٰ تحفظ القرآن؟ قال: إِنْ شَاءَ اللهُ إذا انتهيت من الثانوي أبدأ أحفظ. إذا جاء إلىٰ الكلية قال: والله الكلية أصعب، إِنْ شَاءَ اللهُ إذا انتهيت من الكلية أحفظ، وأحفظ المقرر. وإذا انتهىٰ من الكلية قال: والله الآن أنا شاب وأحتاج أن أتزوج وأحتاج أسعىٰ شيئًا أحصل أموال حتىٰ أتزوج. إِنْ شَاءَ اللهُ إذا تزوجت أحفظ وأجعلها تحفظ معي. وإذا تزوج قال: والله امرأة مسكينة وتحتاج أني أتلطف معها، وإن شاء الله إذا تعودت علي نحفظ بِإِذْنِ اللهِ. إلىٰ أن يموت والعائق الوحيد أمامه. لكن إذا وجدت فراغا تستطيع أن تقوم معه بالأعمال الصالحة وتقول الأقوال الحسنة فأقبل ولا تنتظر حتىٰ تفرغ تمامًا فإن هذا لا يكاد يحصل للإنسان.

(وحياتكَ قبل موتِكَ) فإن الموت يقطع العمل الصالح إلا ما استُثني. «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له».

(وغناكَ قبل فقرِكَ) أنفق في حال الغنىٰ، أنت الآن تستطيع أن تدعم الدعوة. أعطي من تعلم أنهم يجتهدون في الدعوة من مالك. أنت الآن تستطيع أن تسهم في بناء مسجد، بناء مركز إسلامي للمسلمين أهل السُّنَّة، ادفع ولو قليلًا. تستطيع أن تتصدق. والموفق لا يخلي يومه من الصدقة. ولو بقليل حتىٰ يدخل في دعاء الملك: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا». أنت الآن تستطيع، ربما غدًا ما تستطيع. ربما غدًا تصبح فقيرًا لا تجد ما تأكله. وما تنفقه لله هو الذي يبقىٰ. لما سأل النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة عن الشاة فقالت: (ذهبت كلها إلا ذراعها). أبقت الذراع لأن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الذراع. وأمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كريمة. تصدقت بالشاة إلا الذراع لأن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الذراع. لاحظوا يا إخوة! بيت ما توقد فيه النار لشهر وشهرين وثلاثة، تأتي ذبيحة، ما قالت نحن بحاجة ونحن ما نطبخ وكذا، تصدقت بها وأبقت الذراع؛ لأن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الذراع. فقال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل بقيت كلها إلا ذراعها». لأن

الذي خرج في سبيل الله هو الباقي. فما دمت قادرًا لا يشترط أن تكون غنيًا يا إخوة. لا يشترط أن تمتلئ الخزانة إذا كان عندك زيادة عن النفقة الواجبة فتصدق. ولو بالقليل. فإنك لا تدري ما يكون بعد ذلك. والشاهد أن تشغل فراغك بما ينفعك.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وفي الحديث الآخر: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

(الشرح)

هذا حديث البخاري في الصحيح: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» أي يصاب كثير من الناس فيهما بالغبن والأسف والندم لفوات الخير فيهما. نعمتان يصاب كثير من الناس فيهما بالغبن والأسف والندم والحسرة لفوات الخير فيهما. إن لم يكن هذا في الدنيا ففي الآخرة. فإنه ما مات ميت إلا تمنىٰ لو عاد ليصلي ليسجد لله سجدة. وما جلس قوم مجلسًا لا يذكرون الله فيه إلا كان عليهم تِرة يوم القيامة. يندم المحسن أنه ما ازداد إحسانًا. والمسيء أنه قد أساء. فهاتان النعمتان يفرط فيهما كثير من الناس فيصابون بالغبن والأسف والندم والخسارة.

(الصِّحَّةُ) والناس في الصحة ثلاثة أقسام:

- قسم يغتنمها في الخير، وهذا المفلح الراجح.
- قسم لا يغتنمها في الخير ولا يفعل شرًا فيها. وهذا مضيع علىٰ نفسه الخير وسيندم.
- قسم تغره صحته فيفعل المعاصي. يغتر بصحته وقوته فيفعل المعاصي، وهذا غرّه إبليس وغرته نفسه الأمارة بالسوء. -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-.

والشاهد أن الخاسر من لم يحفظ قلبه ووقته، وأن الرابح المفلح من حفظ قلبه ووقته.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فخذ نفسك بتحقيق طريق المحاسبة الظاهرة والمراقبة الباطنة

(الشرح)

المحاسبة الظاهرة يا إخوة هي عرض الأعمال والأقوال السابقة للثبات علىٰ حسنها والتخلص من سيئها. المحاسبة هي عرض الأعمال والأقوال السابقة للثبات علىٰ حسنها والتخلص من سيئها بالتوبة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والمراقبة الباطنة هي مراقبة ما في القلب والإرادات القلبية، بحيث لا يكون في القلب إلا الإرادة للمعالي والأمور الجليلة.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فخذ نفسك بتحقيق طريق المحاسبة الظاهرة والمراقبة الباطنة تظفر بالكنز الأسنىٰ والمقصد الأعلىٰ.

واعلم أن (المحاسبة) في اصطلاح أكثر الطائفة

(الشرح)

يعني إذا أخذ الإنسان نفسه بالمحاسبة والمراقبة فإنه يزكي نفسه، يقول ابن الْقَيِّم رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (أرباب الطرق) والمقصود بأرباب الطرق أهل تهذيب النفوس وتزكية النفوس، وليس المقصود الطرق الصوفية. (أرباب الطرق مجمعون عَلَىٰ أن مراقبة الله تَعَالَىٰ في الخواطر) يعني الإرادات، في القلب، (سبب لحفظه في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حَفِظَهُ اللهُ في حركاته في سره وعلانيته). العبد إذا علم علم اليقين أن الله يراه، وأن الله يسمع كلامه، وأن الله يعلم ظاهره وباطنه، واستحضر هٰذَا دائمًا فإن هٰذَا يثمر في قلبه الحياء من الله، والرجاء والخوف، ويثمر في ظاهره الحرص عَلَىٰ الأعمال الصالحة والأقوال الحسنة. وَهٰذِه حقيقة المراقبة والمحاسبة، هٰذِه المراقبة والمحاسبة أن يعرض أعماله السابقة ليثبت عَلَىٰ الحسن ويتخلص من السيئ.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

واعلم أن (المحاسبة) في اصطلاح أكثر الطائفة تختص بالأعضاء السبعة الظاهرة، وهي: الأذن والعين، واللسان (والأنف) والفرج، واليد والرجل - وأن (المراقبة) تختص بالخواطر القلبية الباطنة فرابط الثَّغرين، واجتهد علىٰ تحقيق هذين المقامين.

(الشرح)

قَالَ: (واعلم أن المحاسبة في اصطلاح أكثر الطائفة) أي أكثر الطائفة التي تعتني بتهذيب النفس وتزكية النفوس والآداب والأخلاق، وليس المقصود بها الصوفية، فإن الصوفية أبعد الناس عن تهذيب النفس وعن تزكية النفس. الصوفية يلوثون النفوس وقد يصل الأمر إلىٰ تلويثها بالشرك الأكبر والكفر الصُراح؛ نعوذ بالله. لكن المقصود بالطائفة هنا هم الذين يعنون بتزكية النفوس وتهذيب النفوس والآداب والأخلاق.

المحاسبة إذا اجتمعت مع المراقبة عندهم فالمحاسبة في الظاهر، أي عرض الأعمال والأقوال، فهي تختص بالأعضاء السبع الظاهرة: الأذن، والعين، واللسان، والأنف، والفرج، واليد، والرجل. والأعمال والأقوال تكون بهذه. وأن المراقبة تختص بالخواطر القلبية الباطنة؛ يعني كما قلت تختص بمراقبة القلب وإرادات القلب.

(فرابط الثَّغرين) يعني ظاهرك وباطنك، قلبك ووقتك. المرابطة أن تحفظ الثغر من عدوٍ يريده، فرابط علىٰ قلبك ووقتك، وانتبه للأعداء الذين يريدون إفساد قلبك أو يريدون تضيع وقتك. ومن أعظم الأعداء في زماننا هذه الهاتف النقال. مضيعة للوقت، ومحزنة للنفس، ومكثر للهموم، ويظهر خلاف الواقع. الذي يدمن النظر في هذه الهاتف في الحقيقة يضيع وقته. تجد أنه يمر ساعة وساعتان وثلاث وهو يقلب في هذا الهاتف. ويسبب الهم؛ لأنه يعرض علىٰ الإنسان أخبارًا قد تكون صحيحة والإنسان لا يملك فيها شيئًا. وقد تكون مكذوبة وأكثره كذب. يكثر الهموم. وهو في الحقيقة يخبر عن خلاف الواقع. الذي يقرأ في هذه الوسائل يظن أن الفساد غالب علىٰ الناس. بينما إذا قابلت الناس وجدت الخير كثيرًا بحمد الله. وجدت الذين مع أهل السنة كثر بحمد الله.

ولذلك يا إخوة من الخطأ أن تحكم علىٰ بلد بالذين يتكلمون في وسائل التواصل من ذلك البلد. بعض الناس يقول بلد كذا أهل فتنة. لأنه رأىٰ أن عددًا يكتبون في وسائل التواصل بالفتن ويطيرون بالفتن، فينسب هذا إلىٰ أهل البلد. أنت لو قابلت أهل البلد حقيقة لوجدت أن أكثرهم

علىٰ خير، أو كثير منهم علىٰ خير. أقصد الذين يعرفون السنة. فهذا في الحقيقة: انتبه! رابط علىٰ ثغر قلبك ووقتك من هذا العدو الجديد! وسائل التواصل. وهذا الهاتف الذي تحمله معك أول كنت تحتاج أن تقوم وتذهب للشيء، الآن في يدك في جيبك، حتىٰ وإن كنت في المسجد. استعمله في الخير واحذر أن يقتنص قلبك أو يقتنص وقتك.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وهذه «النصيحة المختصة»، لا تحتمل بسط المقال وتوسيع المجال، فلاحظ نكتًا أوردها عليك، والله خليفتي عليك.

(الشرح)

النكتة عند العلماء النقطة ذات الشأن. يعني لاحظ أمورًا ذات شأن أوردها عليك في هذه النصيحة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سياق التمدح: والله ما تغنيت ولا تمنيت.

(الشرح)

روي عنه هذا في سياق ذكره لصفاته التي يرجو بها الخير عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد روىٰ هذا عنه ابن ماجة في السنن. وقال الألباني: ضعيف جدًا. وروىٰ الطبراني في الكبير وأبو يعلىٰ أن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال ذلك لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد حكم بعض أهل العلم علىٰ هذا بأنه موضوع. فالأثر علىٰ كل حال ضعيف جدًا، ولا يثبت عن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. لكن ما معناه؟ (والله ما تغنيت) أي ما لهوت بالغناء. فإن اللهو كله مضيعة للوقت. (ولا تمنيت) قال بعض أهل العلم يعني ما كذبت، بل أنا صادق دائمًا، فلا أتخرص الكذب. وقال بعض أهل العلم (لا

تمنيت) يعني ما ملأت قلبي بالأمان المشغلة. فما تمنيت علىٰ الله الأماني وأتبعت نفسي هواها، وإنما كان في قلبي الخير والهمة العالية، وإرادة الخير.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فاحذر كل الحذر من تحكيم الخيال، والتورُّط في لجج الآمال

(الشرح)

الخيال بلا عمل ضياع، بل إن إبليس يستخدمه ليصرف الإنسان عما ينفعه. ومن ذلك ما تجدونه أحيانًا في أنفسكم عند حضور الدرس: إذا كنت تحضر الدرس يأتيك إبليس بالخيال أنك ألفت كتابًا في فضائل كذا، وأن ما شاء الله نفع الله به الأُمَّة، وطارت به الركبان، و.. و.. حتىٰ إذا خلص الدرس ما عندك شيء. والآمال التي لا يستطيع الإنسان تحقيقها ضياع، تشغلك عما تستطيع بما لا تستطيع. الآمال أن تحفظ القُرْآن، وتحفظ الكتب الستة، وتحفظ متنًا في كل فن، وأنت ما تستطيع. تشغلك عن طلب العلم الذي تستطيعه. فإياك والخيال، وإياك من التورط في لجج الآمال التي لا تستطيعها، وإنما تضيع عليك ما تستطيعه.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

واعتبر قول من قال: فِكرُك فيما مضىٰ، وفِكرُك فيما يأتي شغل عما يلزمك في الوقت.

(الشرح)

ومن مقاصد الشيطان أن يشغل الإنسان عن الخير في وقته، إما بالتفكير في الماضي وإلقاء الهموم بسبب هٰذَا، وإما بالخوف من المستقبل. وما كان من أمر الدنيا ومضىٰ فإنه قد مضىٰ، ولا يمكن عوده، ولن يصلحه التفكير فيه. وما كان من أمر الدنيا في المستقبل فهو غيب، ولن ينفع التفكير فيه، وإنما لك الساعة التي أنت فيها. وما كان مما يتعلق بالآخرة فما مضىٰ حسنه مثبت عند الله وسيئه يمكن إصلاحه بالتوبة الصادقة. فلا تشغل نفسك بجلد نفسك علىٰ ما مضىٰ من

ذنوبك، وتدخل الهموم علىٰ قلبك بالذنوب الماضية. لا! تب إلىٰ الله توبة صادقة تكون أصلحت الماضي، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. والمستقبل تصلحه بإرادة الخير، أن تريد أن تعمل الخير في المستقبل، ويكفي، حتىٰ يأتي وقته إِنْ شَاءَ اللهُ لك البقاء. والحاضر تصلحه بالأعمال الصالحة بأن تغتنمه في الأعمال الصالحة والأقوال الحسنة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وهذه كلمة جامعة، فانقش معناها في قلبك يفتح لك الباب (إن شاء الله) في تحقيق عبودية ربك.

(الشرح)

إذا حفظت قلبك ووقتك فأنت تترقىٰ في المعالي، وفي تحقيق توحيد الله وعبوديتك لربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

واحذر من دقائق الشرك فإنه السُّمُ القاتل.

(الشرح)

اللهُ أَكْبَرُ! أعظم ما ينبغي أن تحافظ علىٰ نفسك منه الشِّرْك، فَالشِّرْك أقبح الذنوب، وأعظم الظلم، وينبغي أن تحفظ نفسك من تفاصيل الشِّرْك؛ لأن العلم بقبح الشرك علىٰ وجه الإجمال حاصل لكل أحد ممن عرف الإسلام. لكن العلم بتفاصيل الشرك هذا الذي غاب عن كثير من الناس فوقعوا في الشرك وهم ينتسبون إلىٰ الإسلام. ولن تستطيع أن تحفظ قلبك من دقائق الشرك وتفاصيله إلا إذا علمت الشرك وتفاصيله. فاحرص علىٰ أن تعرف الشرك علىٰ وجه التفصيل كما تحرص علىٰ أن تعرف التوحيد علىٰ وجه التفصيل. هذه طريقة أهل السنة والجماعة. أهل السنة والجماعة يعلمون التوحيد علىٰ وجه التفصيل، ويعلمون الشرك علىٰ وجه التفصيل ويكررون ذلك بخلاف غيرهم. والشرك لا شك أنه السم القاتل؛ فإن الله لا يغفر الشرك ولا يغفر ذنبًا

لمشرك. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. قال العُلَمَاء: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ لها معنيان مجموعان:

المعنىٰ الْأَوَّلُ: أن الله لا يغفر للمشرك شركه، فمن أشرك الشرك الأكبر فهو من أهل النار.

المعنىٰ الثَّانِي: أن الله لا يغفر للمشرك ذنبه، فالمشرك يوم القيامة يؤاخذ بشركه وذنوبه، جميع ذنوبه، لا يغفر الله له ذنبًا. ولا شك أن هذا هو السم القاتل.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ومن المعلوم أن التوحيد أعظم المقامات

(الشرح)

التوحيد أعظم المقامات، به عمارة الأرض. وإذا خلا مكان من التوحيد فلا تنتظر إلا الفساد؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما قال لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والخليفة هو الذي يعمر الأرض، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال ربنا سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. إذن خلافة الإنسان في الأرض وعماراته للأرض إنما تكون بالتوحيد. وإذا خلا المكان من التوحيد فلا تنتظر إلا الفساد والإفساد، والقتل والهرج. والتوحيد هو أعظم الحقوق، هو حق الله عَزَّ وَجَلَّ.

«يا مُعاذُ، أتدري ما حَقُّ اللهِ علىٰ العِبادِ، وما حَقُّ العِبادِ علىٰ اللهِ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: حَقُّ اللهِ علىٰ العِبادِ أن يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شَيئًا، وحَقُّ العِبادِ علىٰ اللهِ ألَّا يُعَذِّبَ مَن لا يُشرِكُ به شيئًا» كما في الصحيحين أو كما قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والتوحيد هو الذي جاء به الأنبياء جميعًا، فكل نبي قد دعا إلىٰ التوحيد. ولذلك دين الأنبياء واحد، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وإذا اتفق الأنبياء علىٰ شيء فهذا دليل علىٰ أنه أعلىٰ المصالح. أعلىٰ مصالح الخلق ما اتفق عليه الأنبياء عَلَيْهِم السَّلَامُ، والأنبياء عَلَيْهِم السَّلَامُ

أعلىٰ ما اتفقوا عليه توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فأعلىٰ مصالح الناس توحيد الله. بل شرط مصالح الناس توحيد الله. لا مصالح علىٰ وجه الحقيقة إلا في ظل التوحيد، وإلا كان الإنسان يعيش فسادًا وإفسادًا.

ولعظم شأن التوحيد كان أول أمر في القرآن بالتوحيد، وكان أول نهي في القرآن نهيًا عن الشِّرْك: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]. افتُتحت الأوامر في القرآن بالأمر بالتوحيد، وافتُتحت النواهي في القرآن بالنهي عن الشرك، وذلك يدلك علىٰ أن أعظم المهمات وأعلىٰ المقامات التوحيد. ولا يعلو عبد إلا بالتوحيد. فإذا رأيت شيخًا مشيخًا أو شخصًا يُدَّعىٰ أنه ولي فانظر إلىٰ توحيده، فإذا لم تجده من أهل التوحيد فاعلم أن هذه الألقاب زور وبهتان. لا يعلو عبد إلا بالتوحيد، ولا يكون الإنسان وليًا إلا إذا كان موحدًا. والناس في التوحيد يتفاوتون:

- فمنهم من يأتي بأصل التوحيد.
- ومنهم من يحقق التوحيد الواجب.
- ومنهم من يحقق كمال التوحيد.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ومن المعلوم أن التوحيد أعظم المقامات والشرك -بلا شك- أعظم المهلكات. وهذا كلام مجمل تفني دون تحقيقه الأعمار، وقد عجز عن تسنُّم ذِروة كماله الصغار ومعظم الكبار.

(الشرح)

التوحيد شأن عظيم، والسلامة من الشرك شأنها عظيم. ولو بقي الإنسان عمره فإنه يبقىٰ ولا يستطيع أن يصل إلىٰ تحقيق كمال التوحيد، لكن يسعىٰ إلىٰ ما يستطيع؛ لأن تحقيق كمال التوحيد يدخل فيه العمل بالمستحبات والبعد عن المكروهات، ومن قبل ذلك العمل بالواجبات وترك

المحرمات، ومن قبل ذلك أصل التوحيد. ولذلك يا أخوة التوحيد وظيفة العمر، والدعوة إلىٰ التوحيد لا يجوز أن تفتر. دعوة التوحيد يجب أن تستمر وأن لا تنقطع، كما فعل النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو إلىٰ التوحيد من أول لحظة بُعث فيها إلىٰ آخر لحظة كان فيها حيًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كما يقول علماؤنا: التوحيد علم يكرر. ما ينبغي لطالب العلم أن ينقطع عن علم التوحيد، كل ما انتهىٰ من كتاب يشرع في كتاب، وكل ما بعد العهد بكتاب رجع إليه، وهو وظيفة العمر.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فالتوحيد لبّ القرآن، ونظام الشريعة، وسر الملة الحنيفية، وخلاصة الدعوة المحمدية.

قال الخليل الأول إبراهيم عليه السلام لما وضع في كفة المنجنيق: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل.

(الشرح)

كما قدمنا عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في صحيح البخاري. وهذا الأثر يكون له حكم الرفع؛ لأن الذي فيه خبر لا يقال بالرأي.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ولما ضجَّت الملائكة عليهم الصلاة والسلام وقالوا: ربنا خليك يُلقىٰ في النار، ليس لك خليل غيره، وأتاه جبريل -عليه السلام- وناداه: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

(الشرح)

هذا رواه أبو نعيم في الحلية عن مقاتل وسعيد. قالا: (لما جيء بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ..) إلىٰ آخره، والبيهقي في الشُعب عن بشر بن الحارث، وذكره البغوي رواية عن كعبي الأحبار، وكلها لا تصح، والمرفوع منها موضوع. فهذه القصة يحتج بها أهل الشرك بالاستغاثة بغير الله، ويقولون إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يستغيث به، وهذا باطل، فإن هذه القصة أصلًا لم تثبت. ولو ثبتت فإن ليس فيها أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن

يستغيث به، وإنما عارض عليه أن ينصره بِإِذْنِ اللهِ؛ لأن الله أذن للملائكة أن ينصروه لو صحت القصة، فَقَالَ: (انصروه)، لو صحت القصة، لكن القصة لم تصح.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فجرَّد التوحيد وحقق التفريد، ولما فعل ذلك وأفرد الواحد، تولاه الواحد سبحانه، وجعل النار عليه بردًا وسلامًا.

(الشرح)

فالأمن كله في التوحيد. الأمن كله في التوحيد. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. الأمن كله في التوحيد. من أراد الأمن فعليه بالتوحيد. من أراد العزة فعليه بالتوحيد. من أراد الخير فعليه بالتوحيد. من أراد أن يترقىٰ في درجات الكمال فعليه بالتوحيد.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وقد عُلِم أن الخلق والاختراع لا يقدر عليه غير الله تعالىٰ. وكذلك جميع خصائص الربوبية، كالنفع والضر، والعطاء والمنع، والإحياء والإماتة، وإسباغ العماء، وإجابة الدعاء، والنصر علىٰ الأعداء.

(الشرح)

مقصود المصنف هنا أنه معلوم أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الرب. فهو الخالق وهو المالك الذي له الخلق والأمر. وهو المدبر، وهو المربي والمصلح بالنعم. وهذا يعلمه كل إنسان. وإذا عُلم أن الله هو الرب فإنه يُعلم أنه لا يستحق أن يُعبد إلا هو سُبْحَانَهُ. فالخالق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يقدر علىٰ الخلق إلا الله. وكذلك النفع والضر، والعطاء والمنع، علىٰ وجه الاستقلال، إنما هو من الله. ولا أحد يستطيع أن يعطي أو يمنع إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فالمخلوق لو أعطىٰ أو منع فإن

ذلك في حقه ناقص علىٰ وجه التسبب بِإِذْنِ اللهِ، وإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ. ولذلك جاء في الحديث: «واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتَمَعَت علىٰ أنْ يَنفَعوك بشَيءٍ، لم يَنفَعوك إلَّا بشَيءٍ قدْ كَتَبَه اللهُ لك، ولو اجتَمَعوا علىٰ أنْ يَضُرُّوكَ بشَيءٍ، لم يَضُرُّوك إلَّا بشَيءٍ قدْ كَتَبَه اللهُ عليك». رواه أحمد والتِّرْمِذِيّ، وصححه الألباني.

فالمخلوق إن نفع أو ضر فهو من باب التسبب بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وإلا فالذي يملك النفع والضر هو الله. وإن أعطىٰ أو منع فهو بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. علىٰ وجه كونه سببًا، وإلا فالذي ينفع ويضر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والشر ليس إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كذلك الإحياء والإماتة. وإسباغ النعماء وإجابة الدعاء والنصر علىٰ الأعداء إنما هي من الله. وتجد بعض المخذولين الآن من المعممين من يجعل هذا لغير الله، وُجِد اليوم في زماننا من يقول إن الولي يستطيع أن يخلق الأجنة في الأرحام، ووُجد في كتب القوم قديمًا وحديثًا أن الولي يحيي ويميت، وقد يمنع المَلك من أن يصعد بأرواح الموتىٰ -نعوذ بالله من الخذلان-. هذا أطبق الكفار والمؤمنون قديمًا وحديثًا علىٰ الإقرار بأنه لله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الله هو الرَّبّ. لكن في زماننا وُجد من ينتسب إلىٰ الدين ويشرك حتىٰ في الربوبية -نعوذ بالله من سوء الحال-. والعبد إذا أقر بهذا واعتقد هذا اعتقادًا جازمًا -أعني ما ذكره الْمُصَنِّف- فهذا هو توحيد الربوبية، وإذا أقر بتوحيد الربوبية علم أنه لا يستحق العبادة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال الله تعالىٰ: {مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}

(الشرح)

يقيم الأدلة علىٰ ما ذكر أن الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا أعطىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يستطيع أحد أن يمنع، وإذا منع الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يستطيع أحد أن يعطي، ولو اجتمع الخلق كلهم.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وقال تعالىٰ: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ}

(الشرح)

انظر! (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق والقادر علىٰ الإيجاد ابتداء قادر علىٰ الإعادة. (وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ) المخاطبون يعلمون أنه الله ويقرون أنه الله. ثُمَّ: (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ) المقدمة تتعلق بالربوبية، والنتيجة تتعلق بالألوهية. فمن أقر بربوبية الله لزمه أن يقر بألوهية الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

مع قوله سبحانه: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ..} الآيات كلها

(الشرح)

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]. المقدمة تتعلق بالربوبية والنتيجة لزوم الألوهية، لزوم أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الإله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يستحق العبادة غيره.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]. وهذه الآيات من أجلّ آيات التوحيد كما قال الْمُصَنِّف، وفيها يعني الإلزام بتوحيد الألوهية بالإقرار بتوحيد الربوبية.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وهذه الآيات الشريفة من أَجَلِّ آيات التوحيد وأعظمها دلالة عل اختصاص الرب سبحانه بذلك دون كل أحد من خلقه، لأن في أول كل آية منها قوله: (أمْ مَنْ) وفي آخر كل أية منها قوله: (أإله مع الله)، فافهم واعلم، لازلت مُوَفَّقًا.

واحذر من الغلو

(الشرح)

لما ذكر أن أعظم ما ينبغي أن تحمي قلبك ووقتك منه الشرك ذكر أعظم سبب للوقوع في الشرك وهو الغلو ومجاوزة الحد، فإن الغلو في الصالحين كان وسيلة الشيطان لإيقاع الناس في الشِّرْك. نزل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ موحدًا، وأمنا حواء موحدة، وبث الله منهما رجالًا كَثِيْرًا ونساء وكانوا موحدين. وظل الناس عشرة قرون علىٰ التوحيد، والشيطان يسعىٰ في إغوائهم. نال منهم بعض المعاصي لكن لم ينل منهم مقصوده الأعظم وهو الشرك. فلما كان في قوم نوح رجال صالحون فماتوا، كان الناس إذا رأوهم يذكرون الله. أوحىٰ إليهم إبليس أن انصبوا في أماكنهم تماثيل وأنصاب، إذا رأيتموها تذكرتموهم فعبدتم الله. ففعلوا، فتركهم إبليس علىٰ هذا. فلما مات أولئك القوم وتنسخ العلم وحل الجهل، أوحىٰ إبليس إلىٰ من بعدهم أن آباءكم إنما فعلوا ذلك ليجعلوهم وسيلة إلىٰ الله، ليقربوهم إلىٰ الله زلفىٰ، فعُبِدت من دون الله. وهذا مضمون الأثر الثابت عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صحيح البخاري. والغلو كله شر، وأشره الغلو في الصالحين ورفع الصالحين فوق منزلتهم، وإعطاء الصالحين ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

واحذر من الغلو، فإنه شر من التنقص بالصالحين، وكل منهما ضلال مبين

(الشرح)

عندنا طائفتان:

- طائفة تغلو في الصالحين.
- وطائفة تتنقص الصالحين ولا يرون لهم مقامًا، ولا يرون لهم مكانة.

وكلاهما شر وضلال. والذي عليه أهل السنة والجماعة الاعتقاد أن الصالحين عباد مكرمون، أكرمهم الله بعبادته، وجعلهم أولياء له، فلهم مقامهم ولهم كراماتهم التي يُكرمون بها لا يُعبدون بها.

والغلو في الصالحين شر، وتنقص الصالحين شر، لكن الغلو في الصالحين أقبح. الذي يغلو في الصالحين أقبح من الذي يسب الصالحين، لأن الغلو في الصالحين يوقع في الشرك ويجر إلىٰ الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(المتن)

وذلك لأن التنقص عدوان علىٰ البشرية، والغلو عدوان علىٰ الإلهية.

(الشرح)

لأن التنقص عدوان علىٰ هؤلاء الصالحين فهو عدوان علىٰ بشر مكرمين، أما الغلو فإنه عدوان علىٰ الألوهية ويقود إلىٰ الشرك بالله. نعوذ بالله من ذلك.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

كما أن التعطيل شر من التمثيل

(الشرح)

التعطيل هو تعطيل صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، والتمثيل هو تمثيل صفات الله بصفات المخلوقين. وكلاهما شر. نثبت بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ بمعانيها الحقيقية علىٰ ما يليق بجلال الله، لا نعطلها ولا نمثلها. ليس كمثله شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فالتعطيل شر والتمثيل شر، لكن التعطيل شر من التمثيل، لأن التعطيل يجعل المعطَّل عن الصفات عدمًا، لا! يستحيل وجود خال من الصفات. فالتعطيل تعطيل صفات الله عَزَّ وَجَلَّ في الحقيقة يؤول إلىٰ العدم. فهؤلاء المعطلة يعبدون عدمًا. والتمثيل تنقص. وكلاهما شر، وكلاهما في ذاته كفر، لكن التعطيل أقبح من التمثيل.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

كما أن التعطيل شر من التمثيل، مع أن كلا منهما كفر

(الشرح)

يعني بذاته، التعطيل كفر، والتمثيل كفر، لأنه رد للقرآن والسنة، لكن المعطل والممثل هذه ينظر فيها.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فإن التمثيل يتضمن إثبات وجودٍ ناقص

(الشرح)

التمثيل تنقص، فيكون فيه إثبات، لكن مع التنقص.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

والتعطيل يستلزم العدم.

(الشرح)

لأنه يستحيل وجود ذات بلا صفة، ويستلزم العدم.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

والوجود كيفما كان: خير من العدم بكل حال.

ولأجل درء موادّ الغلو عن قلوب الأمة قال سيدها وسيد الخلق كلهم -صلىٰ الله عليه وسلم-: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله».

(الشرح)

عند البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه سمع عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول علىٰ المنبر: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ؛ فإِنَّما أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». هكذا عند البخاري، لا تطروني، الإطراء يا إخوان يراد به معنيان:

المعنىٰ الْأَوَّلُ: مجاوزة الحد في المدح، أي لا ترفعوني عن مقامي إلىٰ مقام الألوهية.

المعنىٰ الثَّانِي: الكذب في المدح، ومن أعطىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفة لم يعطها الله له فقد كذب في مدحه.

«لَا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ؛ فإنَّما أَنَا عَبْدُهُ»، أنا عبد الله، هو صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد يعبد الله لا يُعبد، وشُرف بالرسالة. «فَقُولوا: عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». ورواه أحمد رَحِمَهُ اللهُ قريبا من اللفظ الذي ذكره المصنف، وكذلك رواه ابن حبان في صحيحه قريبًا من اللفظ الذي ذكره الْمُصَنِّف. وفي هذا حماية النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجناب التوحيد، ونهيه عن وسيلة الوقوع في الشرك، وهي الغلو فيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو بمدحه، ولو كان قصد الغال أن يمدح فقط، كما فعل.. يعني ما يفعل قراء قصيدة البردة للبوصيري، فهذا في الحقيقة مخالفة لأمر رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارتكاب لنهيه.

ومن عجبٍ أنهم يقولون: نهىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك تواضعًا ونفعله أدبًا. أين الأدب في أن تفعل ما نهىٰ عنه؟ هذا في غاية سوء الأدب، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ عنه شرعًا ودينًا. والأدب مع الله ومع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا تغلو في رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كما أن الأدب أن لا تتنقص رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وبعض الناس جمع بين الغلو والتنقص، فيغلو في النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جانب، ويتنقص في جانب، فيرفعون من يقول إن هذا الولي فوق الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يقول مقام النبوة في برزخ، فويق الرسول ودون الولي. مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي. وبعضهم يجعلون الولي الذي يعتقدونه أعظم من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك لا يستطيع أن يخالف هذا الولي الذي يعبده، ويخالف رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي نفس الوقت يغلون في رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجعلون له ما لله، وما لم يجعله له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني الله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده».

(الشرح)

روىٰ أحمد عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رجلًا قال للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما شاءَ اللهُ وشئتَ). فقال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجعلتني للهِ عدلًا بل ما شاء اللهُ وحدَهُ». وصححه الشيخ أحمد شاكر. ورواه البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قال رجلٌ ما شاء اللهُ وشِئتَ قال جعَلتَ للهِ ندًّا؟! ما شاءَ اللهُ وَحدَه»، وصححه الألباني.

وروىٰ النسائي في الكبرىٰ عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «جاء رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم، يُكلِّمُه في بعضِ الأمرِ، فقال ما شاء اللهُ وشئتَ فقال صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم: أَجَعَلْتَني لله عدلًا قل ما شاء اللهُ وحدَه». انظر هنا! الرجل قال للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما شاء الله وشئت)، والواو تقتضي التسوية، وهذا حرام لا يجوز. فماذا قال له النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: «أجعلتني لله عَدلًا» أو «عِدلًا»، كلاهما يُضبط به، أي مساويًا. «قل ما شاء الله وحده» فانظر كيف نقله إلىٰ المقام الأبعد، «قل ما شاء الله وحده» مع أنه يجوز أن يقول: ما شاء الله ثم شئت؛ لكن لما كان قريبًا من التسوية قَالَ: (ما شاء الله وشئت) ما قال له: (بل قل ثم شئت)، لا! نقله إلىٰ الأبعد (قل ما شاء الله وحده). وفي هذا حماية النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجناب التوحيد، ويريد المصنف أن يقول لنا إن الطريقة الشرعية أن يبعد الإنسان نفسه عن كل الشرك ووسائله البعيد والقريب.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وقال: «إني والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت».

(الشرح)

روىٰ البخاري عن أبي هريرة أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ما أُعْطِيكُمْ ولَا أَمْنَعُكُمْ، إِنَّما أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ»، يعني المعطي الله، وهو الذي قسم هٰذِه، فأنا قاسم أضع حيث أُمرت.

وروىٰ البخاري ومسلم أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وإنَّما أنا قاسِمٌ واللهُ يُعْطِي». وفي هذا حماية النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد. مع أنه يعطي بِإِذْنِ اللهِ وبأمر الله، قَالَ: «إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»، وإنما المعطي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ولما خُيِّرَ بين أن يكون نبيًّا ملكًا، أو عبدًا رسولًا، نظر إلىٰ جبريل، كالمستشير له، فقال له: يا محمد، تواضع لربك، فقال: «بل عبدًا رسولًا».

(الشرح)

روىٰ الإمام أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «جلَسَ جِبريلُ إلىٰ النبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ فنَظَرَ إلىٰ السَّماءِ، فإذا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فقال جِبريلُ: إنَّ هذا المَلَكَ ما نزَلَ مُنْذُ يومِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعةِ، فلمَّا نزَلَ قال: يا محمدُ، أَرْسَلَني إليك رَبُّك، أَفَمَلِكًا نَبيًّا يَجْعَلُك، أو عَبْدًا رَسولًا؟ قال جِبريلُ: تَواضَعْ لِرَبِّك يا محمدُ، قال: بل عَبْدًا رسولًا». قال محقق المسند: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين. ورواه ابن حبان وصححه الألباني. فالله عَزَّ وَجَلَّ خير نبينا محمدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أن يجعله ملكًا نبيًا أو يجعله عبدًا رسولًا، فاختار صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون عبدًا رسولًا. أو ملكًا نبيًا؛ يعني يجمع له بين النبوة والملك، أو يكون عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا. فكيف يستقيم أن يُرفع صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُغلىٰ فيه إلىٰ مقام الألوهية. نعوذ بالله من سوء الحال.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

والنبي الملك سليمان عليه السلام، قال الله تعالىٰ له: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي أعطِ من شئت وامنع من شئت فإنا لا نحاسبك، والعبد الرسول هو الذي يضع حيث أُمِرَ، كما تقدم من قوله -صلىٰ الله عليه وسلم-.

(الشرح)

واختار النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقام العبودية مع الرسالة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وشاهد هذا قوله تعالىٰ {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}

(الشرح)

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} أي هداية توفيق، وأما هداية الإرشاد والبيان فالنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدي إلىٰ صراط مستقيم.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}

(الشرح)

فالأمر كله لله عَزَّ وَجَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وإذا كان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف الأنبياء والمرسلين وأكمل الخلق صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من الأمر شيء فكيف بمن دونه.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

{قُلْ لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

(الشرح)

النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب، ولا يعلم إلا ما أعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذا بنص القرآن والسنة وإجماع السلف رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم. وبعض الناس اليوم يقول إن النبي

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم وهو في قبره، ويعلم ما يحدث، بل يخرج ويشارك. قبل يومين أسمع لشيخ له قناة يبكي ويقول يعني لا أعلم كيف حصل هذا الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء وصلىٰ المغرب خلفي وحضر الدرس كله كاملًا إلىٰ أن صليت به العشاء. سُبْحَانَ اللهِ! نعم، شياطين يوحي بعضهم إلىٰ بعض. نعوذ بالله من سوء الحال.

لعلنا نقف هنا، ونكمل شرح هذه النصيحة العظيمة النافعة غدًا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتقبل منا أجمعين. أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينفعني وإياكم والسامعين والسامعات بها، وأن يجعلني وإياكم من عباده الصالحين.

والله تَعَالَىٰ أعلىٰ وأعلم، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد.

المجلس الثَّانِي

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ الأتمان الأكملان علىٰ المبعوث رحمة للعالمين، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أما بَعْد؛

فمعاشر الفضلاء؛ نواصل شرحنا لرسالة النصيحة المختصة لابن الحَبَّال البعلي رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وهو من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ. وقد كتب هذه النصيحة في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وقد تضمنت هذه الوصية فيما تقدم معنا أن يرابط المسلم علىٰ ثغرين مرابطة عظيمة، أن يرابط عليهما مرابطة من لا يغفل في مرابطته. أن يرابط عليهما مرابطة من يعلم أن عدوه يترصد له يريد أن ينال منه مراده. وهذان الثغران العظيمان هما: وقته، وقلبه.

أما وقته فيرابط عليه بأن يغتنمه دائمًا فيما يقربه إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ من الأعمال الصالحة والأقوال الحسنة. وحتىٰ إذا اشتغل بشيء من الدنيا فإنه ينوي فيه نية صالحة ليصبح قربة يثاب عليها. فإذا سعىٰ في طلب الرزق فإنه ينوي بهذا أن يحصل مالًا يعف به نفسه عن المسألة، وينفق منه ابتغاء وجه الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ زوجه، وعلىٰ ذريته، وعلىٰ أقربائه، ويتصدق منه. ينوي هذه النية فيؤجر علىٰ سعيه في طلب الرزق. وإذا أراد أن يأكل ينوي بأكله أن يتقوىٰ علىٰ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وإذا أراد أن ينام ينوي بنومه أن يقوم نشيطًا في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ. أو أن ينام عن الشر، ويغفل عن الشر بهذا النوم. فإنه بهذا يثاب علىٰ كل أعماله الدنيوية إذا قرنها بهذه النيات الطيبة والإرادات الطيبة. وأن يحذر حذرًا شديدًا من تضييع أوقاته، فإن الوقت هو الحياة. أن يحذر من تضيع وقته في الحرام بأن يجعل نعمة الله عليه بهذا الوقت ظرفًا لفعل الحرام الذي يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. كما يحذر من تضيع وقته فيما لا ينفعه ولا يقربه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما قلبه فيرابط عليه بأن يحفظه من الاعتقادات الفقيرة. بأن يحفظه من الاعتقادات الفاسدة والإيرادات الفاسدة والإرادات الفاسدة. يحفظ قلبه من كل اعتقاد فاسد، ويحفظ قلبه من أن يورد

عليه أمور فاسدة، وأفكار فاسدة منحرفة، فلا يورد علىٰ قلبه إلا خيرًا ويحفظ قلبه من الإرادات الفاسدة ومن الخواطر التي هي من سفاسف الأمور ولا تنفعه بشيء. يحفظ قلبه من كل هذا.

وأعظم ما يُحرص علىٰ السلامة منه هو الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ الشرك الأكبر الذي هو أقبح الذنوب، وهادم الدين، الذي لا يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يُدخِل صاحبه الجنة أبدًا. يحذر الإنسان من أن يرد الشرك الأكبر علىٰ قلبه. وقد علمنا أن الشرك قد يكون بالاعتقاد، وقد يكون بالفعل، وقد يكون بالقول، وقد يكون بِالشَّكّ؛ لأن التوحيد الذي هو أعلىٰ المطالب وينبغي أن يحلي الإنسان قلبه وعمله وقوله وحياته به يكون بالاعتقاد، ويكون بالأفعال، ويكون بالأقوال بيقين.

فأعظم ما يقوم القائم علىٰ قلبه به أن يحلي قلبه بالتوحيد، وأن يحذر من ورود الشرك علىٰ قلبه، وهو في هذا الطريق يحذر الغلو المؤدي إلىٰ الشرك الأكبر؛ لأن الغلو هو مجاوزة الحد، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذر من الغلو كله، وبين أنه مهلكةٌ مُهلِكة فَقَالَ: «إياكم والغلوَّ، فإنما أهلكَ من كان قبلكم الغلوُّ» كما عند أحمد وغيره بإسناد صحيح. حذرنا النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغلو في الأمور كلها. والغلو قد يكون في الاعتقاد، وقد يكون في العبادات، وقد يكون في المعاملات، وقد يكون في العادات، وقد يكون في الأشخاص. لكن أقبحه وأغلظه قبحًا هو الغلو في الصالحين، بأن يُعطَوا ما لله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يُرفعوا فوق منزلتهم، فالعباد الصالحون عباد لله عَزَّ وَجَلَّ يعبدون ولا يُعبدون. فإذا أخرجهم الإنسان من كونهم عبادًا لله عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ كونهم يُعبدون من دون الله عَزَّ وَجَلَّ فقد غلا أقبح الغلو، وأشنع الغلو.

والمسلم وهو يرابط علىٰ وقته وقلبه أن لا يقبل -- ((@ كلمة غير مفهومة- ٠٨:٣٣)) -- معناها العام وبمعناها الخاص. والمحاسبة بمعناها العام هي عرض الأعمال والأقوال والاعتقادات والإرادات للثبات علىٰ صالحها، وللتخلص من فاسدها. وبمعناها الخاص هي عرض الأقوال والأعمال للثبات علىٰ صالحها والتخلص من فاسدها.

وأما المراقبة بمعناها العام فهي أن يعلم العبد وأن يتيقن أن الله عَزَّ وَجَلَّ يراه، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يسمع كلامه، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم ظاهره وباطنه، وأن يتيقن أنه سائر إلىٰ الله، وأنه ملاق

الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الله سيحاسبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعناها الخاص، فهي مراقبة القلب من أن تخطر فيه الخواطر المتعلقة بسفاسف الأمور أو توجد فيه الإرادات الفاسدة أو الاعتقادات الفاسدة.

هذا خلاصة لما تقدم ذكره وبيانه وشرحه من كلام هذا العالم الناصح السني ابن الحبال رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ونواصل قراءة ما سطره هذا العالم العلامة رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ونعلق علىٰ ذلك.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ. اللهم اغفر لنا ولشيخنا ووالدينا والمسلمين أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ؛ قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فإن قلت: فهو -صلىٰ الله عليه وسلم- سيد الخلق وأجل الوسائط، وقد أقامه مولاه سبحانه مقام نفسه في مثل قوله تعالىٰ: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ}، وقوله تعالىٰ: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} فما معنىٰ الواسطة في هذا المقام؟

(الشرح)

تقدم معنا أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ عن إطرائه، وكان يغضب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أُطري صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكأن معترضًا اعترض، فقال: أنا لا أطريه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أكذب في مدحه، ولا أتجاوز الحد في مدحه، لكنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له منزلة عُليا، فهو سيد الخلق. وكون النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الناس ثبت بالنص في قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا سَيِّدُ ولَدِ آدَمَ يَومَ القِيامَةِ» كما عند مسلم في الصحيح. وأما كون النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الخلق وأفضل الخلق فهذا لم يثبت بالنص، لكن دلت الأدلة العامة وإكرام الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غاية الإكرام أنه أفضل الخلق صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ: (وأجل الوسائط) أي أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو واسطة بيننا وبين الله، ووسيلة بيننا وبين الله. وأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد أقام نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقام نفسه في مثل قوله: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]. فأنا عندما أتخذه وسيلة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ وأرفعه إلىٰ مقامه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم أطره، ولم أعبده، ولم أتجاوز به حده. ولذلك قال: (فما معنىٰ الواسطة في هذا المقام؟) هل هي وسيلة مطلقة أم أنها وسيلة مقيدة؟ والشيخ أجاب عن هٰذَا، ونحن سننبه علىٰ بعض ما أغفله بعد الانتهاء من كلامه رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فما معنىٰ الواسطة في هذا المقام؟

فأقول لك، مع الاختصار والاقتصار: اعلم -أيدك الله وإيانا بروح منه- أن هذا الباب يحتاج إلىٰ التفصيل.

(الشرح)

أن هذا الباب يعني كون النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واسطة أو وسيلة بيننا وبين الله.

(يحتاج إلىٰ تفصيل) يعني من جهة الإثبات والنفي. فلا يثبت مُطْلَقًا ولا ينفىٰ مُطْلَقًا.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فإن من أنكر الوسائط بين الله تعالىٰ وبين خلقه مطلقا فقد كفر وجحد حقائق الرسالة

(الشرح)

يعني من قال لا واسطة بيننا وبين الله مُطْلَقًا فقد كفر لأنه ينكر الرسالة، ينكر كون جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل بالوحي علىٰ الرسل، وكون الرسل واسطة بيننا وبين الله في معرفة الدين؛ لأنه ينكر الواسطة مُطْلَقًا. فتضمن هذا أو دخل في هذا أنه ينكر كون جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ واسطة ينزل بالوحي من الله عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ الرسل، وكون الرسل عليهم السلام واسطة بين الناس والله عَزَّ وَجَلَّ في بيان الدين، وكون نبينا محمدا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الواسطة بيننا وبين الله في معرفة دينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولا شك أن من أنكر هذا يكفر لأنه ينكر الرسالة، فهو يكفر بهذا.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال الله تعالىٰ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا}

(الشرح)

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) لأنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، والله يوحي إليه الكتاب والحكمة، التي هي السُّنَّة. وما نهاكم عنه فانتهوا كذلك. فنبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الواسطة بيننا وبين الله في بيان الدين، فلا نعرف أمر الله إلا عن طريق رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إما بتلاوته الكتاب عَلَيْهِ السَّلَامُ وإما بسنته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكذلك نهي الله عَزَّ وَجَلَّ لنا لا نعرفه إلا من طريق رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ومن أثبتها مطلقة في كل شيء فقد ضل ضلالًا بعيدًا وخسر خسرانًا مبينًا.

(الشرح)

لأن من أثبتها مُطْلَقًا فإنه يدخل في ذلك أن يثبتها في باب الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يكون الواسطة شريكا لله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته أو ألوهيته، ولا شك أن هذا شرك أكبر يخرج من الملة، فلا بد من التفصيل في الإثبات والنفي.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

أما باب معرفة الحلال والحرام والصلاة والصيام وغير ذلك من واجبات الشريعة ومستحباتها ومحرماتها ومكروهاتها ومباحاتها، وما يتعلق بهذا الباب جميعه فلابد فيه من الواسطة، لأن جبريل حَمَلَ وبلَّغ، والرسول المعصوم أنذر وبشَّر، والصدر الأول حفظ وأوصل، وهلم جرًّا .. فهذا الباب أمره معروف مشهور.

(الشرح)

يعني أما بيان الدين فإن الواسطة فيه ثابتة بلا شك، فإن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نزل بالوحي من الله علىٰ رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنا لنشهد بذلك، وإن رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلغ الدين كله، ونشهد له بذلك كما شهد له الصحابة رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم في حجة الوداع، فنشهد أنه قد بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة وجاهد في الله حق الجهاد. ما ترك شيئًا مما أوحاه الله إليه إلا وبينه لنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فبيّن دين الله الذي أكمله الله عَزَّ وَجَلَّ في حياة نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والصحابة رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم هم الواسطة بيننا وبين رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عدّلهم ربنا ورضي عنهم ومات النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو راضٍ عنهم، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وأرضاهم وأخزىٰ من عاداهم. بلغوا ما سمعوه من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمانة حتىٰ أن أحدهم لو شك في الكلمة فإنه يذكر شكه، مع أن الشك لا يؤثر، والكلمة الأخرىٰ بمعنىٰ الكلمة الأولىٰ، لكنهم حفاظ عدول.

ثم قيض الله عَزَّ وَجَلَّ للدين رجالًا يحفظونه. أما القرآن فقيض الله له حفاظًا من الكبار والصغار يحفظونه في صدورهم إلىٰ اليوم. وقد يخطئ الإمام الحافظ فيرد عليه طفل صغير خلفه. وهذا من حفظ الله عَزَّ وَجَلَّ للقرآن. كما أنه حُفظ في السطور كما حُفظ في الصدور. وجمعه الصحابة رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم. وسنة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيض الله لها رجالًا عدولًا يحملونها، ورجالًا كالأطباء ينقدون حملة هذه السُّنَّة، فبينوا الصحيح من الضعيف، والسليم من العليل، فجزاهم الله خير الجزاء.

وهؤلاء الرجال الذين يحملون السنة منهم فقهاء، ومنهم من حمل السنة إلىٰ من هو أفقه منه، فتفقه في الكتاب والسنة رجال خدموا الأمة وحُفظ بذلك دين الله عَزَّ وَجَلَّ. فهؤلاء كلهم من الوسائط في الدين، ومن وسائل معرفتنا الدين، فهذا ثابت لا شك فيه.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وأما باب خصائص الربوبية، كالخلق والرزق وإجابة الدعاء ونحو ذلك فإنه أمر يتولاه الله تعالىٰ بنفسه، ليس بين المخلوقين وبينه سبحانه فيه مَلَك مقرب ولا نبي مرسل.

(الشرح)

أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ مختصة به سُبْحَانَهُ، هو الذي يرزق عباده، وهو الذي يربيهم بالنعم، وهو الخالق سُبْحَانَهُ، وهو المدبر سُبْحَانَهُ له الخلق والأمر. وإفراده سُبْحَانَهُ بأفعاله المختصة به وإفراده بالكمال في الأفعال التي جعل الله عَزَّ وَجَلَّ لبعض خلقه منها شيئًا هذا حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يكون شيء إلا بأمر الله وإلا بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والرب هو الإله المستحق للعبادة، فحق الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُعبد. والعبادة محض حق الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يجوز أن يُصرف منها قليل أو كثير لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا لولي صالح. وإنا لنشهد أن الملائكة المقربين والرسل الأكرمين والأولياء الصالحين يأبون أن يُعبدوا من دون الله، وكانوا ينهون عن عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فالربوبية خاصة بالله عَزَّ وَجَلَّ. والطلب والسؤال بمعنىٰ الْدُّعَاء، إنما يكون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والدعاء هو العبادة كما قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والألوهية كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والدين يجب أن يكون لله خالصًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن أثبت وسيلة في هذا وقال ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ فقد أشرك. من دعا غير الله وقال أنا ما أعبده، لكني أتخذه وسيلة، أنا عبد مذنب، وهذا ولي صالح، فأنا أتخذه وسيلة إلىٰ ربي، قلنا لو لم تثبت له التأثير لما دعوته، وهذا شرك في الربوبية، وعندما دعوته فقد عبدته، لأن الدعاء هو العبادة، فأشركت في الربوبية، وأشركت في الألوهية، وأشركت في الألوهية،

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال الله تعالىٰ: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ}، {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ}، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا}، {وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}. وقال تعالىٰ: {قُلِ ادْعُوا

الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}.

(الشرح)

وهذه الآية قطعت كل أسباب الشرك، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [سبأ: ٢٢]، ما شأنهم؟ ﴿ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، فكيف يعطون؟ هم لا يملكون مثقال ذرة، هم يُعطون، الله يعطيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكيف يعطون؟ كيف يُسألون؟ وكيف يُطلب منهم!؟ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢] هم ليسوا شركاء لله عَزَّ وَجَلَّ في أفعاله، فلا يستطيعون إعطاء الناس شيئًا. ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الغني الغنىٰ المطلق، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، إذا جاء شخص وقال أنا إنما أتقرب إليهم لأنال شفاعتهم. الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أنه لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له. إذًا الشافع مأذون له، والمأذون له لا يملك. المأذون له لا يملك الشفاعة. الشفاعة لله جميعًا. الله يملكها، والله يأذن لمن شاء أن يشفع. فالشفاعة إنما تُطلب من الله؛ لأن الله هو الذي يملكها. ولا تنفع الشفاعة إلا أن تكون ممن أذن الله له بالشفاعة ورضي عنه. وأن يكون المشفوع له قد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وما معنىٰ (قد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)؟ يعني أن يكون من الموحدين. لا تنال شفاعة الشافعين يوم القيامة إلا موحدًا. حتىٰ شفاعة نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أعني الشفاعة للأشخاص- لا تنال إلا موحدًا. فهي نائلة إِنْ شَاءَ اللهُ من مات لا يشرك بالله شيئًا، كما أخبر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فهذا سدَّ كل وسائل الشِّرْك، وسدَّ كل أسباب الشرك. وتبين لمن يقرأ ويفهم أنه لا يُسأل ذلك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولا يُطلب ذلك إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

لما كان قوم يدْعون المسيح وقوم يَدْعُون العُزير، وقوم يدْعُون الملائكة..

(الشرح)

وهؤلاء عباد صالحون. لما كان قوم من الكفار المشركين يدعون المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو رسول الله، وقوم يدعون عزيرًا وهو من أنبياء الله، وقوم يدعون الملائكة وهم عباد مقربون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(المتن)

-كما ذكر ذلك طائفة من السلف- أنزل الله تعالىٰ قوله: {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)}.

(الشرح)

اللهُ أَكْبَرُ! (قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ) وانظروا هل ينفعونكم شيئًا. (فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ) لا دفعه ولا رفعه. (وَلَا تَحْوِيلا) ولا تحويله عنكم إلىٰ غيركم. (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) إذن ما كان المشركون فقط يعبدون الأصنام، كان منهم من يعبد رجالًا صالحين. (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) إذن يعبدون الله. وسُبْحَانَ اللهِ! هو يبتغي الوسيلة إلىٰ الله فكيف يجعل وسيلة إلىٰ الله في هذا الباب!؟ هو يبتغي الوسيلة إلىٰ الله، والوسيلة إلىٰ الله توحيده والإخلاص له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ودعاء الصالحين الأحياء. (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) يتقربون إلىٰ الله ويتنافسون في الخيرات. (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ) هم فقراء إلىٰ رحمة الله. (وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) وهذه العبادة كما سيأتينا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

إذن كان من المشركين من يعبد رجالًا صالحين ومع ذلك جعلهم الله مشركين، وقاتلهم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن قاتل، وما نفعهم ذلك شيئًا. ما نفعهم أنهم يعبدون رجالًا صالحين ويتخذونهم وسيلة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

أثبت سبحانه أنَّ المدعوِّين صالحون، لأنهم يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة، ويرجون، ويخافون، وبيّن سبحانه أنهم مع ذلك لا يملكون الإجابة لئلا يتوهم المشركون ومن فيهم من أرقائهم أو رقائقهم

(الشرح)

أي من يتبع المشركين في شبهاتهم ممن ينتسب إلىٰ الإسلام، فإنه في الحقيقة كالرقيق للمشركين، كالعبد المملوك للمشركين. من ينتسب إلىٰ الإسلام ومع ذلك لا يوحد الله بل يتابع المشركين في هذه الشبهات ويعبد غير الله بسبب هذه الشبهات إنما هو رقيق لأولئك المشركين، وهو مشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، سواء كان ذكرًا أو أنثىٰ.

نعم **قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:**

(المتن)

لئلا يتوهم المشركون ومن فيهم من أرقائهم أو رقائقهم أن النهي يقتصر علىٰ الأصنام وغيرها من الأوثان، وأن الصالحين يجوز دعاؤهم بظهر الغيب والاستعانة بهم والاتكال عليهم، فإن هذه الأمور من خصائص الربوبية.

(الشرح)

يعني يا إخوان هذا رد علىٰ شبهة من شبهات المشركين؛ يقولون أنتم تأتون بآيات نزلت في عباد الأصنام، وتنزلونها علىٰ من يتخذون الصالحين وسائل إلىٰ الله، فجعلتم الصالحين كالأصنام، وجعلتم عبادة الأصنام منزلة علىٰ التقرب إلىٰ الله بهؤلاء الصالحين؛ وهذه شبهة باطلة، وهذه الآية تدكها دكًا، وترد هذه الشبهة.

ثُمَّ **قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:**

(المتن)

وقد نهىٰ الله ورسوله عن الشرك ومتعلقاته في مواضع لا تحصىٰ، بل هذا التجريد التوحيد هو قطب دين الإسلام، فاثبت فيه بلا تردد تسعدْ وترشد إن شاء الله تعالىٰ.

(الشرح)

والله لا سعادة ولا هداية ولا رشد ولا أمن ولا طمأنينة قلب إلا بالتوحيد. من أراد العزة، من أراد الأمن، من أراد الطمأنينة، فعليه بالتوحيد. عليه أن يدعو إلىٰ التوحيد، عليه أن يظهر التوحيد، وعليه أن يثبت علىٰ ذلك. والله يا عبد الله، والله لو كنت واحدًا في قرية موحدة وأهل القرية يشركون بالله فأنت الأمة، أنت الأُمَّة! فاثبت ولا تشرك بالله شيئًا، ولا تلن في دينك. احمد الله أن عافاك مما ابتلاهم به، وادعهم إلىٰ التوحيد إن استطعت، ولا تطعهم في شيء من الشِّرْك، ولا تتردد في ذلك، ولا تحدث نفسك، فإنك علىٰ الحق المبين.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وسأذكر لك كلامًا يقرب الأذهان من فهم هذا الشأن:

اعلم -أيدك الله وإيانا- أن المؤمن إذا قام في جوف الليل، حيث هدأت الأصوات ونامت العيون، إلىٰ مناجاة الله ودعائه، فإنه يعتقد أن مولاه سبحانه يسمع السر والنجوىٰ، ويعلم السر وأخفىٰ، وأنه مدبر له، قادر علىٰ جميع مراداته، وهو كذلك تبارك وتعالىٰ.

(الشرح)

انتبه لهذا المشهد! إذا قام العبد في اَللَّيْل، وقد نام من نام، وهدأت الأصوات، وتوقفت الحركات، وقام يدعو الله، لماذا يدعو الله؟ لا يدعو الله إلا لأنه قام في نفسه أن الله عَزَّ وَجَلَّ مدبر أمره، وأن الله يسمع دعاءه، وأن الله يجيب دعاءه، وأن الله يعلم سره ونجواه، وأن الله قادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والأمر كذلك بلا شك. ولكن انظر إلىٰ المقابل!

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وإذا قام في ليلة أخرىٰ..

(الشرح)

وإذا قام في ليلة أخرىٰ أو قام غيره في نفس الليلة علىٰ غير ما كان عليه هو.

(المتن)

وإذا قام في ليلة أخرىٰ وقال (مثلا) كما يفعل كثير من الناس: يا سيدي الشيخ، أنا في جنبك، أنا في جوارك، شيء لله، أطلب لي من ربك كذا وكذا، ونحو هذا الكلام الذي جرت به عوائد معظم الناس في هذه الأزمنة المتأخرة، فلولا أنه يعتقد أن الشيخ يسمع ويعلم ويقدر، وأن سِرَّه يطلع علىٰ ما هو فيه ولو كانت المسافة المحسوسة بينهما بعيدة، وأن هذا أمر مطلوب له عند النفوس ثمرة نافعة، لولا جزمه بذلك ومثله لكان الخطاب منه علىٰ وجه العبث الذي لا يستحسنه عاقل، أو التلاعب في العبادة الذي لا يجوز بحال.

(الشرح)

إذا قام قائم في الليل وقد نام النوّام، وهدأت الأصوات، وسكنت الحركات، ونادىٰ وهو في بيته في ظلمة اَللَّيْل، في داخل بيته: يا سيدي فلان، يا سيدي فلان، الجاه الجاه، الغوث الغوث، الرزق الرزق، حتىٰ لو كان بين بيته وبين هذا الشيخ بيوتات قليلة، فكيف إذا كان بينه وبينه مسافات؟ وكيف إذا كان هذا المنادىٰ ميت؟ لماذا يناديه؟ لو لم يكن في قلبه اعتقاد أنه يسمع، وأنه يجيب، وأنه يقدر، وأن له تأثيرًا، لما دعاه. إذن لا يمكن أن يقع منه هذا الأمر إلا وقد أشرك في الربوبية، واعتقد أن لهذا المخلوق تأثيرًا. سواء سألهم مباشرة فقال: يا شيخ الولد الولد. يا رسول الله الغوث الغوث، الرزق الرزق. وهذا شرك واضح بلا إشكال. أو دعا من لا يسمع كلامه أن يدعو الله له. سأل من لا يسمع كلامه أن يدعو الله له، فجاء إلىٰ صاحب القبر أو سأل صاحب القبر من بعيد، هو في المغرب، ولا في إندونيسيا، ولا في ماليزيا، ولا في نيويورك، ولا.. ويقول: يا رسول الله اسأل الله أن يرزقني ولدًا. اطلب الله لي أن يفعل لي كذا وكذا. أو هو في المدينة أو يسأل البدوي في مصر ويقول: يا سيدنا الشيخ، يا سيدنا اسأل الله لي كذا وكذا. فإن هذا من الشرك الأكبر؛ لأنه يعتقد أن له تأثيرًا، وأنه يسمع، وأنه قادر، وأنه يجيب. وهذا شرك في الربوبية وشرك في الألوهية. فهو من الشرك الأكبر.

لماذا نقول هذا؟ لأنه لو لم يكن يعتقد أنه يسمع، وأنه يقدر، وأن له تأثيرًا لكان سؤاله له في جوف بيته عبثًا وسخفًا، يأباه العقلاء. في بيته يقول: يا شيخ؛ وهو لا يعتقد أن الشيخ يسمعه، ولا

يعتقد أن الشيخ يؤثر ويجيب ويعطي. هذا إما مجنون وإما أنه لن يفعل. وهذا أمر ظاهر جدًا. وفي هذا رد علىٰ شبهة المشركين الذين يقولون: إنا هذا رد علىٰ شبهة من شبه المشركين الذين يفعلون الشرك وينتسبون إلىٰ الإسلام، ويقولون إنا عندما ننادي الشيخ نحن لا نعتقد فيه، ولا نعتقد أن له تأثيرًا، ولا نعبده. فإنا نقول إنه لا يمكن أن تفعلوا ذلك إلا وأنتم تعبدونه، وأنتم تعتقدون أن له التأثير.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وإذا اعتقد في الشيخ ونحوه أنه يظهر الغيب، ويسمع ويعلم، ويقدر ويدبر، فما الذي ترك لربه سبحانه في هذا الباب من خصائص ربوبيته وحقائق إلاهيته؟!

(الشرح)

هم يعتقدون أكثر من هٰذَا، هم يعتقدون أنه لا يتحرك متحرك في الكون ولا يسكن ساكن في الكون إلا بتدبير الأقطاب، وأن الأقطاب يجتمعون كل يوم يدبرون الكون، يحركون المتحرك ويسكنون الساكن. بل يعتقدون أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بإذن الأقطاب وإذن أولئك الأولياء الذين يعبدونهم من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما تركوا لله شيئًا. بل حتىٰ في استحضارهم لا يستحضرون الله عَزَّ وَجَلَّ، يستحضرون الشيوخ ومن يتقربون إليهم، ولا يرد الله في قلوبهم. إذا نزلت به المصيبة لا يذكر الله، ولا يتذكر الله، وإنما يذكر الشيخ، ويتذكر الشيخ، وينادي الشيخ، ويدعو الشيخ، ويسأل الشيخ. بل يلقنون أتباعهم أنك إن دعوت الله أبطأ عليك في الإجابة إن أجاب، أما إن دعوت الشيخ فهو سريع الجواب. يصرفونهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ تمامًا، ويعلقونهم بتلك المخلوقات التي لا تملك شيئًا إلا بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فما الذي ترك لربه سبحانه في هذا الباب من خصائص ربوبيته وحقائق إلاهيته؟! لقد ضل من اعتقد هذا وخسر حيث جعل عظمة الوحدانية لآحاد البشر. وأكثر النفوس في مثل هذه الأزمنة لا تتفطن لهذه المصيبة العظيمة، وقد قهرها الغلوّ والعوائد الفاسدة

(الشرح)

يعني أعمىٰ أبصارها وبصائرها الغلو، والعوائد الفاسدة، ما أُثر عن الآباء والأجداد، فهو لا يتبصر بالقرآن، ولا يتبصر بِالسُّنَّةِ، ولا يتبصر بالمواعظ وكلام أهل السُّنَّة؛ لأنه مغطىٰ البصر والبصيرة بالغلو في الصالحين، وقد سكن خوف السر قلبه حتىٰ أصبح يظن أنه لو اعتقد أن هذا الولي لا ينفع لضره. والعوائد الفاسدة وتعود الناس علىٰ الذهاب إلىٰ الأضرحة وسؤال أهل القبور وكونهم يتوارثون هذا فهذا غطىٰ الأبصار والبصائر. وقلع الناس من هذا يحتاج إلىٰ اجتهاد عظيم.

ولذلك ينبغي علىٰ أهل السنة أن يثبتوا، وأن يجتهدوا في دعوة الناس، ولو رأوا كثرة المخالفين، ولو رأوا إعراض المخالفين، ولو ما أصابهم من سب المخالفين، فإن الناس أعداء لمن عادىٰ عوائدهم، فكيف بالعوائد التي يعتقدونها دينًا وأن فيها نفعًا ودفعًا للضر. لا شك أن الأمر يحتاج إلىٰ ثبات عظيم، وجهاد عظيم، واجتهاد كبير.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فإلىٰ الله الشكوىٰ، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال تعالىٰ في تجريد التوحيد أيضا: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ} (١)، {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ} (٢)، {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ}.

(الشرح)

فالأمر كله لله، وإنما يُطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والأمر ظاهر، والبراهين كاشفة، لكن الغلو والعوائد الفاسدة وعلماء السوء المتنفعين من هذا الشرك يحولون بين الناس وبين هذا الخير العظيم في الكتاب والسنة وكلام أهل السنة. وأنتم ترون اليوم فيما يُنقل في وسائل التواصل، كيف يصل الأمر بالناس إلىٰ التلطخ بأوحال الشرك. رأيت رجلًا عند قبر يكرر (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) مئة مرة، وبعد أن فرغ منها مباشرة وضع يده علىٰ القبر وقال: المدد المدد يا سيدي. ويحك! (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) تصدك عن هذا لو كنت تعقل ولو كنت تفهم. والأمر واضح والبراهين كاشفة بحمد الله عَزَّ وَجَلَّ. لكن ينبغي علينا أيها الإخوة أن نجتهد في إيصال الحق إلىٰ الخلق، وأن لا نيأس من أحد. ونجتهد في إيصال الحق إلىٰ الخلق. وليكن همنا أن ننقذ الناس من الشرك بِإِذْنِ اللهِ، وحول الله، وقوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فالخليل الأول إبراهيم

(الشرح)

الخليلان اثنان:

الخليل الْأَوَّلُ: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الخليل الأكبر: محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإنما نال إبراهيم الخلة بتحقيق الحنيفية، ونال محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخلة الكبرىٰ بتحقيق الحنيفية أكمل وأظهر. ولا تُنال الكرامة عند الله إلا بالحنيفية التي هي التوحيد والبراءة من الشرك.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فالخليل الأول إبراهيم -صلىٰ الله عليه وسلم- قد تقدم ذكر توحيده وتجريده (٤)، وأما الخليل الأكمل محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- فإن مقاماته العالية ومواقفه الرفيعة في هذا الباب

الأشرف لا تحصىٰ إلا بكلفة. ولنقتصر في هذا الموضع علىٰ إيراد مضمون خبر واحد تضمن تحقيق هذا المقام وتكميله، وهو قوله لما تسلل أحد جبابرة الكفار إليه في بعض الغزوات وقت غفلة الصحابة رضي الله عنهم وتفرقهم تحت الأشجار لشدة الحر، وانفراده وحده نائما تحت شجرة.

(الشرح)

وقد علق صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيفه بالشجرة. النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علق سيفه بالشجرة ونام تحت الشجرة، والصحابة تفرقوا يلتمسون الظل، وناموا رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمِ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ولما قام الكافر واخترط السيف من قِرابه

(الشرح)

والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائم، اخترط السيف من قرابه ورفعه والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائم.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وقال له بعد أن فتح الرسول عينيه: من يمنعك مني يا محمد؟

(الشرح)

قال له بعد أن فتح الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عينيه وقد رأىٰ السيف مسلطًا علىٰ رأسه: (أتخافني؟) هذا الأعرابي قال للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أتخافني؟) في هذا الموقف العظيم. قال: «لا». فقال: (من يمنعك مني يا محمد؟).

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال: «الله»

(الشرح)

قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الله» ثلاثًا.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فسقط السيف من يده.

(الشرح)

إلىٰ هنا في الصحيحين. إلىٰ هنا القصة في الصحيحين عند البخاري ومسلم.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ونهض رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- فأخذ السيف بيده وقال له: «من يمنعك مني».

(الشرح)

لما سقط السيف من يد الأعرابي الكافر قام النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذ السيف وقال له «من يمنعك مني؟»

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فلم يهتد لطريق التوحيد، بل فزع وجزع ثم قال: يا محمد، كن خير آخذ.

(الشرح)

انظر إلىٰ الموقفين! النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو إمام الموحدين لما رأىٰ السيف مسلطًا فوق رأسه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيفه معلق بالشجرة وقال له الأعرابي: (أتخافني؟) قَالَ: «لا»، ما خاف ولا فزع صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وعندما قَالَ له: (من يمنعك مني؟) قَالَ: «الله»؛ ثقة ويقين وتوكل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. أما هذا الأعرابي الفارغ من التوحيد المشرك بالله لما رأىٰ السيف فزع وخاف وجزع فقال له النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من يمنعك مني؟». فما كان عنده من يمنعه في نفسه، وإنما قَالَ: (كن خير آخذ)، وخير آخذ هو الذي يعفو.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

فقال له: «أسلم تسلم»

(الشرح)

الذي في الروايات: «فقال له: أتشهدُ أن لا إله إلا اللهُ». هذا الذي في الروايات.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال: لا أفارق ديني ولكن أعاهدك أن لا أخرج عليك أبدًا

(الشرح)

الذي في الروايات: (ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك، وأن لا أكون مع قوم يقاتلونك).

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فأطلقه. ولما ذهب إلىٰ قومه قال لهم: جئتكم من عند خير الناس

(الشرح)

إلىٰ هنا عند الإمام أحمد، القصة إلىٰ هنا عند الإمام أحمد في المسند.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال لهم: جئتكم من عند خير الناس، قدر عليَّ فعفا، ولو قدرت عليه ما عفوت عنه.

(الشرح)

ما عثرت علىٰ هذه الجملة لا في كتب الحديث ولا في كتب التخريج والزوائد، ولا في كتب السيرة. وإنما انتهىٰ الخبر عند قوله: (جئتكم من عند خير الناس)، وهذا كما قلت عند الإمام أحمد في المسند.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فأكمل الخلق علىٰ الإطلاق محمد ثم إبراهيم

(الشرح)

الخليلان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فأفضل الناس وأفضل الخلق الرسل عَلَيْهِم السَّلَامُ، وأفضل الرسل أولي العزم، وأفضل أولي العزم محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وقد قال تعالىٰ: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}

(الشرح)

هنا يبين سبب فضيلة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وفوزه بالخلة.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وقال تعالىٰ: {دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}، وقال تعالىٰ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}.

(الشرح)

الواجب هو اتباع الرسل عَلَيْهِم السَّلَامُ في توحيد الله، واتباع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحنيفية، واتباع الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحنيفية. وقد تقدم أن دين الرسل واحد. وكما قلت من أراد الكرامة والعزة والولاية والأمن فعليه بالحنيفية، لا يُكرم عند الله إلا موحد.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فالسلامة في الإسلام، وهو حقيقة الاستسلام والانقياد بالباطن والظاهر للرب سبحانه {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

ومن جملة مهمات التوحيد أن لا تقف عند الشكر والذم من الناس.

(الشرح)

مما يحذره المؤمن علىٰ قلبه الإرادات الفاسدة، بأن يريد من العمل الصالح أو القول الصالح مدح الناس، وثناء الناس. وهذا الرياء؛ أن يظهر العبد العمل الصالح ليمدحه الناس. أو يحسن عمله أمام الناس ليمدحه الناس. وهذا الرياء. والرياء الغالب علىٰ الأعمال والأقوال إنما هو من شأن المنافقين، وهو شرك أكبر. أما الرياء العارض الذي يعرض في بعض الأعمال وبعض الأقوال فهو الشرك الأصغر، يقابل الشرك الأكبر، لا يخرج من الملة لكنه شرك، وخطر عظيم. وهو الشرك الخفي؛ لأنه يتسلل إلىٰ القلوب تسللًا عظيمًا. فينبغي علىٰ المرابط أن ينتبه له، وأن يحذر حذرًا شديدًا منه، وهو شرك السرائر. لأنه يوجد في القلب إرادة فاسدة توجد في القلب. قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصْغَرُ، قالوا: وما الشِّركُ الأصْغَرُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الرِّياءُ؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم يومَ القِيامةِ إذا جُزِيَ الناسُ بأعمالِهم: اذْهَبوا إلىٰ الذين كنتُم تُراؤون في الدُّنيا، فانظُروا هل تَجِدون عِندَهُم جزاءً؟!» رواه أحمد وصححه الألباني.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «خرج علينا رسولُ اللهِ - صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّمَ - ونحن نتذاكر المسيحَ الدجالَ فقال: ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيحِ الدجالِ؟ ، فقلنا: بلىٰ، يا رسولَ اللهِ قال: الشركُ الخفيُّ: أن يقوم الرجل فيصلي فيزيدُ صلاتَه؛ لما يرىٰ من نظرِ رجلٍ» رواه ابن ماجة وحسنه الألباني. وهذا مثال، وليس حصرًا. يقوم الرجل فيزين صلاته لما يراه من نظر الرجل من أجل أن يُمدح ويُثنىٰ عليه.

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أيها الناسُ! إياكم وشِركَ السرائرِ قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما شرك السرائرِ؟ قال: يقومُ الرجلُ فيصلي فيُزيِّنُ صلاتَه لما يرىٰ من نَظَرِ الناسِ إليه، فذلك شِركُ السَّرائرِ». رواه ابن خزيمة وحسنه الألباني. وهذا يجعل العبد حذرًا جدًّا من الرياء. يدفع عن قلبه الرياء إن علم وجوده، ويستغفر الله إن لم يعلم بوجوده. فقد قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أيها الناسُ! اتَّقوا هذا الشِّركَ؛ فإنه أخفىٰ من دبيبِ النَّملِ. فقال له من شاء اللهُ أن يقولَ: وكيف نتَّقيه وهو أخفىٰ من دبيبِ النَّملِ يا رسولَ اللهِ! قال: قولوا: اللهم إنا نعوذُ بك من أن نُشرِكَ بك شيئًا نعلَمُه،

ونستغفرُك لما لا نعلمُه». رواه أحمد وحسنه الألباني. تستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ أن تشرك به شيئًا تعلمه وتستغفر الله لما لا تعلمه، وتدفع عن نفسك ما تعلمه، ولا تستسلم للرياء. والموفق يا إخوة لا يترك العمل الصالح فرارًا من الرياء. ولا يستسلم للرياء. بل يعمل العمل الصالح ويجاهد نفسه في دفع الرياء. وكذلك أيْضًا يراقب قلبه ويحفظ قلبه من إرادة الدنيا بالعمل الصالح، وقد قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الأمة: «مَن عمِلَ منهُم عَمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لَم يكُن لهُ في الآخرةِ مِن نصيبٍ». رواه أحمد وصححه الألباني.

يعني كلام الْمُصَنِّف: لا يدفعك شكر الناس إلىٰ العمل الصالح، بل ابتغ ما عند الله. ولا يجعلك ذم الناس تترك العمل الصالح، بل اصبر وابتغ ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فإن ذلك يصد عن حقائق التعوذ

(الشرح)

قال المحقق: (كذا في المخطوطة، ولعله محرف عن التفريد). قلت: لا هذا ولا هٰذَا؛ الذي يظهر واللهُ أَعْلَمُ: (عن حقائق التعبد)، هذه الكلمة الصحيحة. والتعوذ في الخط الذي كُتبت به المخطوطة يشبه التعبد وهذا الذي يناسب هنا: فإن ذلك يصد عن حقائق التعبد.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ويا سعادة من يذوق حلاوة هذه الأمور.

(الشرح)

أي من يذوق حلاوة التوحيد، والإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، والسلامة من الإرادات الفاسدة. والله إنها أحلىٰ من العسل، إنها أحلىٰ من العسل، حلاوة الإيمان. فمن زين قلبه بالتوحيد والإرادات الصالحة والإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ يذوق حلاوة هي أحلىٰ من حلوات الدنيا، ويعيش سعادة لا

يعيشها الملوك. إنها حلاوة الإيمان، وسعادة التوحيد، والأمن النفسي العظيم الذي يجعله الله عَزَّ وَجَلَّ لمن أتىٰ بهذه الأمور.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

قال الله تعالىٰ في وصف المحبوبين: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}.

وكنت أخبرتك أن سيدنا شيخ الإسلام تقي الدين أبا العباس أحمد بن تيمية- أيده الله وأحسن إليه-

(الشرح)

هذه الجملة (أيده الله وأحسن إليه) هي التي جعلتنا نقول إن هذه النصيحة كُتبت في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ لأنه دعا له بالتأييد والإحسان، وهذا معناه أنه كان حيًا رَحِمَهُ اللهُ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

أوصاني مرة في سنة ثلاث وسبعمائة

(الشرح)

وهذا يدل علىٰ أنه من خواص تلاميذه لأنه أوصاه، والغالب أن الشيخ إنما يختص الخواص من تلاميذه بوصايا خاصة لما يأمله فيهم من الخير.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وصية بليغة حفظت منها قوله

(الشرح)

وهنا هو قَالَ: (أوصاني)، ما قَالَ: أوصانا؛ يعني في جمع. قَالَ: (أوصاني) مما يدل علىٰ أن الوصية كانت موجهة إليه.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وصية بليغة حفظت منها قوله: لا تقصد رضا الناس بأقوالك ولا أفعالك: فإن رضا الناس غاية لا تدرك

(الشرح)

رضا الناس غاية لا تدرك ولا تدوم. أن تصل إلىٰ إرضاء الناس هذا أمر صعب جدًّا، وإذا حصل رضا الناس حينًا فإنما لمصلحة. وإذا زالت هذه المصلحة رجعوا ذامين لك إلا من شاء الله أن يحبك لله، ويمدحك لله.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

اليوم إن تُرْضِ الناس يشكروك.

(الشرح)

إن كانت مصلحة الناس عندك وأعطيتهم شكروك.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وفي غير تسخطهم يذمّوك

(الشرح)

هذا حال الناس إلا من كان أمره لله. كان حبه لله، ومدحه لله، وذمه لله، فهذا يدور مع ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

انقضىٰ عمرك بين شكرهم وذمهم ولا حقيقة لأحدهما

(الشرح)

لا حقيقة لأحدهم لأنه مبني علىٰ المصالح. فهي ليست حقيقة تستقر في قلوبهم. وإذا كنت راعيهم وتراقبهم فالحقيقة أضعت عمرك وأنت تبتغي رضاهم وتخاف ذمهم. ما تثبت علىٰ خير. ولا تدوم علىٰ خير.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

بل إذا عرض لك أمر فيه طاعة الله أقدم عليه ولو أن في قبالته ألفا يذمونك

(الشرح)

اليوم ترىٰ أن الإنسان إذا تمسك بالسنة يذمه أناس كثيرون، ويقومون عليه. لو كان يراعي ذم الناس ما فعل خيرًا، ولصار دينه مهب الريح، يتقلب يمينًا وشمالًا. ولذلك يا إخوة من تمسك بالسنة ثبت، ومن خالفها تقلب. لأن الذي يتمسك بالسنة ما ينظر إلىٰ السنة بالناس، وإنما ينظر إلىٰ الناس بِالسُّنَّةِ، فيثبت علىٰ السُّنَّة، ويدعو الناس إلىٰ السنة. أما الذي يخالف السنة فتراه متقلبًا بحسب ما يطلبه الناس، إن طلبوا اليمين كان من أهل اليمين، وإن طلبوا الشمال كان من أهل الشمال. الثبات إنما يكون علىٰ السنة. من أراد ما عند الله وتَغَيّىٰ سنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستعان بالله رُزق الثبات. ومن خالفها أكثر التنقل.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

بل إذا عرض لك أمر فيه طاعة الله أقدم عليه ولو أن في قبالته ألفا يذمونك، فإن الله تعالىٰ يكفيك شرهم، عملا بما ثبت عن عائشة رضي الله عنها وقد روي موقوفا ومرفوعا إلىٰ النبي - صلىٰ الله عليه وسلم- أنه قال من أرضىٰ الله بسخط الناس كفاه مؤونة الناس».

(الشرح)

روىٰ ابن المبارك في الزهد والترمذي في السنن عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: مَنِ التَمَسَ رِضا اللهِ بسَخَطِ الناسِ، كَفاهُ اللهُ مُؤنةَ الناسِ، ومَنِ التَمَسَ سَخَطَ اللهِ برِضا الناسِ، وَكَلَه اللهُ إلىٰ الناسِ». وصححه الألباني. هذا عند ابن المبارك في الزهد والترمذي في السنن. فمن طلب رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، وكان الله معه. ومن كان الله معه من يغلبه! لا يغلبه أحد. ومن طلب رضا الناس بسخط الله وكله الله إلىٰ الناس، وإذا وكله الله إلىٰ الناس ضاع -نعوذ بالله من سوء الحال-.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وإذا عرض لك أمر فيه معصية احذر ثم احذر أن تقدم عليه ولو أن في قبالته ألفا يشكرونك.

(الشرح)

وفتنة شكر الناس عظيمة يا إخوة، وقد تجعل الإنسان يترك الحق. بعض الناس درس هنا في السعودية، بل أعرف شخصًا كتب رسالة في جامعة من جامعات المملكة عن التوحيد، بل عن إمام الدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب. وعندما عاد إلىٰ بلاده صار رأسًا في البدعة وَالشِّرْك؛ لأنهم جعلوه رئيس الجماعة. فتنة الدنيا وشكر الناس عظيمة، ولذلك يا إخوة لا ينجو بإذن الله إلا من أغمد عينيه عن الناس، لا يلتفت إلىٰ ذمهم ولا إلىٰ شكرهم. إذا كان هناك معصية ومخالفة للسنة فإياك ثم إياك أن تقربها، ولو كان الناس يشكرونك عليها.

الآن نضرب مثالًا بسيطًا:

بعض الآباء والأمهات إذا التحىٰ ابنهم يعني ذموه علىٰ إعفاء اللحية، وقالوا: شوف فلان ما شاء الله، شوف ما شاء الله يحلق لحيته نظيف ومتفوق في دراسته. يذمونه ويشكرون صاحب المعصية. فاحذر هذه الفتنة. ذم الناس وشكر الناس فتنة عظيمة يجب علىٰ المسلم عمومًا وعلىٰ طالب العلم خصوصًا أن يحفظ قلبه من هذه الفتنة، وأن يحذر من ذلك حذرًا شديدًا.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وإذا عرض لك أمر فيه معصية احذر ثم احذر أن تقدم عليه ولو أن في قبالته ألفا يشكرونك، فإن الله تعالىٰ يسلطهم عليك، عملا بقوله -صلىٰ الله عليه وسلم-: «من أرضىٰ الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذامًّا».

(الشرح)

هذا إنما جاء من قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقد روىٰ أبو داود في الزهد عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (من يعمل بسخط الله عَزَّ وَجَلَّ يعود حامده من الناس له ذامًا). وروىٰ معمر عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: (من يطلب أن يحمده الناس بسخط الله يكن من يحمده من الناس ذامًا له). يعني يحمده تارة ثم ينقلب ذامًا له. فهذا جاء من قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وفي لفظ «وَكَلَه الله إليهم ولم يغنوا عنه من الله شيئًا»

(الشرح)

قوله: (وفي لفظ «وَكَلَه الله إليهم») هٰذَا تقدم من كلام النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الَّذِي عند التِّرْمِذِيّ وابن المبارك. أما (ولم يغنوا عنه من الله شيئًا) هٰذِه ما وقفت عليها، هٰذِه الجملة ما وقفت عليها، لا مرفوعة ولا موقوفة.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ولقد وجدت -والله- في مدة العمر لهذه الوصية ثمرات عجيبة، فالله يجمع قلوبنا علىٰ طاعته ومحبته، إنه جواد كريم.

(الشرح)

ولا شك هذه وصية عظيمة، وينبغي علىٰ المسلمين عمومًا وعلىٰ طلاب العلم أن يلتزموها، وأن يكونوا حذرين حذرًا شديدًا من فتنة ذم الناس أو مدح الناس.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

وسأذكر لك أيضا كلمات مختصرات، أرجو بها جزيل النفع، فإن الحاضر من الطِرْس ضاق عن تكميل ما كان في النفس

(الشرح)

الطرس يعني الورقة

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

عليك بالسير إلىٰ الله تعالىٰ بين جناحي الخوف والرجاء، علىٰ طريق تحقيق المحبة.

(الشرح)

الإنسان في سيره إلىٰ الله علىٰ الصراط المستقيم يسير بين سورين يمنعانه من السقوط عن هذا الصراط؛ أحدهما الخوف والآخر الرجاء، ويدفعه للسير علىٰ هذا الصراط دافع حافز هو المحبة. فالمحبة دافعة إلىٰ السير، والخوف والرجاء مانعان من السقوط. والمسلم في سيره إلىٰ الله يسير بين الخوف والرجاء. قال تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هم الذين يَصومونَ ويُصلُّونَ ويَتصَدَّقونَ وهم يَخافونَ ألَّا يُقبَلَ منهم». كما عند الترمذي وصححه الألباني. فإذا كانوا كذلك فما جزاؤهم؟ (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ). إذن الإنسان إذا سار بين الخوف والرجاء، طبعًا الرجاء من أين أخذناه من الحديث؟ الإنسان إذا عمل العمل الصالح لا بد أن يكون عنده رجاء. فإذا سار بين الرجاء والخوف فإنه يسارع في الخيرات ويكون سابقًا إلىٰ الخيرات. فيسير المسلم بين جناحي الخوف والرجاء موازنًا بينهما، لكن يغلب جانب الخوف عند القوة، ويغلب جانب الرجاء عند الضعف. ولذلك ضرب

العلماء مثالًا لهذا فقالوا: في حال الصحة يغلب جانب الخوف؛ لأن الصحة قد تدعو إلىٰ المعصية. وعند المرض يغلب جانب الرجاء.

المقصود أنه عند القوة يغلب جانب الخوف مع وجود الرجاء، وعند الضعف يغلب جانب الرجاء مع وجود الخوف. وكذلك يغلب جانب الخوف إذا تهيأت له المعصية. إذا تهيأت له المعصية وتيسرت له يغلب جانب الخوف. ويغلب جانب الرجاء إذا فعل المعصية. يعني قبل فعل المعصية إذا تهيأت له وتيسر له أسباب المعصية يغلب جانب الخوف؛ لأن الخوف يردعه عن فعل المعصية. فإذا وقع العبد في الذنب -والذنب كالحتم اللازم لابن آدم، كل بني آدم خطاء- فإنه يغلب جانب الرجاء ليتوب حتىٰ لا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. أما عند الموت فيحسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفاته بثلاث ليال: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهو يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ». رواه مسلم بالصحيح.

من آخر كلام النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرنا جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك قبل موته بثلاث ليال.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

مع صحبة الحياء

(الشرح)

من جمع بين الخوف والرجاء والمحبة واستحيا من الله جمع أسباب الخير؛ لأن الذي لا يستحي من الله يوشك أن يقع فيما يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

مع صحبة الحياء، فإن من لم يصحب الحياء والأدب خرق حدًّا، ونقض عهدًا.

واحرص علىٰ أن توقع جملة العبادة علىٰ طريق المحبة والتعظيم، وجميل المراقبة لنظر الرب الكريم، فإنك بمرأىٰ منه، ولا تستغني في لحظة من اللحظات عنه.

(الشرح)

العبادة لا بد فيها من المحبة والتعظيم والمراقبة، بأن تستصحب العلم أن الله يراك الآن وأنت تعمل العبادة، وأن الله يسمع، وأن الله يرىٰ ظاهرك وباطنك، يدفعك ذلك إلىٰ أن تحسن العبادة، وأن تجملها في الظاهر والباطن.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

واحذر كل الحذر من ضياع الزمان في غير عمل راجح، فإنه يقيه عمر المؤمن لا قيمة له.

(الشرح)

والأمر كما قال المحقق في الحاشية الذي يظهر واللهُ أَعْلَمُ (فإنه بغيره)، يعني بغير العمل الصالح عمر المؤمن لا قيمة له. الوقت هو الحياة.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

والزم السنة الصحيحة في الأقوال والأفعال والأحوال، فإن الاتباع غاية السعادة، وإلىٰ تحقيقه ينتهي أمد الزيادة، قال الله تعالىٰ: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}.

(الشرح)

لزوم سنة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نجاة كما قال السلف: (السنة سفينة نوح، من لزم السنة نجا، ومن قال سآوي إلىٰ جبل يعصمني من الماء غرق). ولذلك قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإنَّهُ مَن يعِشْ منْكم بعدي فسيَرىٰ اختِلافًا كثيرًا فعليكُم بسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المَهديِّينَ من بعدي تمسَّكوا بِها وعضُّوا عليها بالنَّواجذِ وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأمورِ فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ» والحديث في السنن بإسناد صحيح.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

ومع هذا التحرز والتجريد، لا تنس الله تعالىٰ في نفس العمل الصالح حال تلبُّسك به

(الشرح)

أي احرص مع كل ما تقدم علىٰ الإحسان في الأقوال والأعمال بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن سقطت عن هذا فإن لم تكن تراه فاعبد الله وأنت تعلم أنه يراك. وقد يترقىٰ الإنسان، يعبد الله ويجتهد أن يعبد الله وهو يستحضر عند العبادة أن الله يراه ويسمعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يترقىٰ حتىٰ يصير إلىٰ درجة أن يعبد الله كأنه يرىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

بل راقب نظره، واشهد اطّلاعه، فإن كثيرا من الواصلين يشتغل بالحال عن المحوِّل، وبالحكمة عن الحكيم، وهذا حجاب كبير، ومن أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية، وهذه مجملات مهمة يطول تفصيلها، ويعزّ -والله- تحصيلها.

واجتهد علىٰ ترك الفضول في الكلام والمأكل، والملبس، وجميع الأمور

(الشرح)

من أصول أهل السنة والجماعة التي يصول بها ويقررونها في أصولهم أن المسلم يحرص علىٰ التخفف من فضول الكلام والمأكل والمشرب والملبس؛ لأن الاشتغال بها مشغل عن الخير، ومثقل للعبد. من اشتغل بفضول الكلام ثقل عليه حسن الكلام. ولذلك بعض الناس يا إخوة ممكن يجلس في مجلس ثلاث ساعات يتكلمون في الدنيا والمزاح، وإذا جاء ذكر الله خمس دقائق تجده ينظر في ساعته. من اشتغل بفضول الكلام ثقل عليه حسن الكلام. وكلما تخفف الإنسان من فضول الكلام كلما جرىٰ لسانه بحسن الكلام. وكذلك المأكل والمشرب والملبس مشغلة للإنسان ومثقلة للإنسان، ولذلك يوصي السلف في أصولهم بالتخفف من فضول الكلام والمأكل والملبس، فضول الدنيا. وإذا عمل الإنسان شيئًا من الدنيا فيزين ذلك بحسن النية حتىٰ يثاب علىٰ ذلك.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

فقد روىٰ البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- بمنكبي وقال: «يا عبد الله، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تحدِّث نفسك بالصباح، وإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

(الشرح)

الذي عند البخاري قال: «وكانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ: إذَا أمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذَا أصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». واللفظ الذي ذكره المصنف الناصح عند الطبراني والتِّرْمِذِيّ، وصححه الألباني، والمعنىٰ واحد، لكن اللفظ الذي عند البخاري هو الذي ذكرناه. وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فهو عند الترمذي في السنن وعند الطبراني في الكبير. فالنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، لا تشغل بها ولا تتعلق بها، ما أنت إلا تركب يستظل في ظل شجرة ثم يذهب ويتركها. ولذلك جاء عند الترمذي والطبراني في آخر أثر ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: «فإنَّكَ لا تَدري يا عبدَ اللهِ ما اسمُكَ غدًا»، أنت اليوم حي، ويناديك الناس باسمك، لكن غدًا والله ما تدري بما ينادونك. قد تموت وينادونك بالميت فلان رَحِمَهُ اللهُ، مات فلان رَحِمَهُ اللهُ.

وما أحوالُنا إلاَّ ثلاثٌ ... شَبابٌ ثمَّ شَيبٌ ثمَّ مَوْتُ

وآخر ما يسمّىٰ المرء شيخا ... ويتلوه من الأسماء ميت

فغنك ما تدري غدًا بما تسمىٰ، فقد تسمىٰ بالميت وينقطع عملك، ما تستطيع أن تعمل شيئًا إلا ما ورثته من ولد صالح يدعو لك، أو صدقة جارية، أو مصحف يُقرأ فيه، أو علم علمته. فاعمل الآن وأنت حي، واغتنم وقتك كما تقدم. وكلما جاءك وقت وفراغ قل لنفسك لعلي أموت فيه أو في آخره. أنت يا عبد الله ترىٰ الناس من حولك يموتون. هذه السنة كم من طالب معنا في حلقات المسجد النبوي قد مات؟ ترىٰ من حولك يمرضون، تذهب إلىٰ المستشفىٰ فتجد مريضًا في سنك

وأصغر منك وأكبر منك. وتجد في سيرك الناس يموتون من أقربائك، من أصدقائك، منهم من هو أصغر منك، ومنهم من هو في سنك، ومنهم من هو أكبر منك. وأنت ما تدري متىٰ تموت. ربما ما تخرج التسبيحة إلا وتموت. فقل لنفسك أنا لا أدري متىٰ أموت، لعل هذا الوقت آخر ما يكون لي في الدنيا.

والعبرة بالخواتيم، ومن قُبض علىٰ شيء بُعث عليه. فدائمًا ذَكِّر نفسك بهذا. واحرص علىٰ اغتنام ما يتيسر لك، وإذا فتح لك باب فادخل إذا كنت من أهله. ولا تتردد ولا تحجم ولا تسوف، فإنك لا تدري لعله أن يكون آخر عمل لك.

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(المتن)

لم تتسع الورقة لأكثر من ذلك، فالله يسلك بنا وبك أجمل المسالك، إنه جواد كريم رؤوف رحيم. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(الشرح)

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينفعنا بهذه النصيحة، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أنتم يا طلاب العلم مقبلون علىٰ الإجازة، وأكثر المشايخ يوقفون دروسهم. لكن طالب العلم لا يتوقف عن العلم. اغتنموا فترة التوقف في مراجعة ما حصلتم من العلم. قد يثقل أحيانًا أثناء الدروس علىٰ الطالب أن يراجع، فهذه الإجازة فرصة أن تراجعوا ما حصلتم. والطالب إذا ترك المراجعة فاته العلم. اغتنموا هذه الفرصة في الإجازة في صلة أرحامكم الذين قد يصعب عليكم أن تصلوهم أثناء وجود الدروس عند المشايخ. اغتنموا هذه الإجازة في خير. اغتنموها في إيصال الخير للناس، من استطاع منكم أن يُدَرِّس فليدرس. ولو أن يُدَرِّس أهله وأقاربه. هذا فيه خير عظيم. وهو من أعلىٰ المقامات. فأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلني وإياكم ممن يحفظ الثغرين: القلب والوقت. وممن يربط عليهما مرابطةً عظيمة.

سؤال: امرأة كانت تقود سيارتها لتتفاجأ بوجود شخص تحتها. كان الشخص نُقل إلىٰ المستشفىٰ ومكث به ستة أيام. ثم خرج إلىٰ منزله ومكث به يومًا، ثم عاد إلىٰ المستشفىٰ وبعدها توفي. هل علىٰ هذه السيدة كفارة صيام؟ علمًا أنه قد حكمت المحكمة ببراءتها بسبب الأدلة الطبية والشاهدة التي شهدت؟

الجواب: أولًا يرجع في هذا إلىٰ أهل الخبرة، وأهل الشأن وأهل النظام في البلد. فإن قالوا إنه عليها شيء من الخطأ ولو كان قليلًا فإنه يلزمها مع الدية أن تكفر الكفارة المعلومة، بأن تصوم شهرين متتابعين.

ثانيًا: هي أعلم بنفسها منهم، فإن علمت من نفسها أنها أهملت التفقد المعتاد ولم تقم بما جرت به العادة من التفقد حول السيارة فإنه يلزمها كذلك الكفارة. أما إذا قامت بما جرت به العادة وساقت وقادت كما يفعل الناس فكان هذا الإنسان تحت السيارة ولم تتنبه له ولم تحمل شيئًا من الخطأ فإنه لا شيء عليها.

سؤال: عندنا في بلادنا مخالفات في المدرسة العمومية من اختلاط وغير ذلك، وعندي أبناء صغار.

الجواب: هذا يُسأل عنه في سؤال خاص.

سؤال: في بلاد من البلدان الغربية ما حكم من يعمل في المحلات التجارية وعمله أن يبحث عن مستودعات تُحفظ فيها البضائع علمًا بأنه لا يدري عن حال هذه البضائع، قد تكون فيها أشياء محرمة؟

الجواب: إذا لم يعلم بالحرام فلا بأس من أن يعمل، أما إذا علم بالحرام فلا يجوز له أن يعمل. لا يجوز له أن يعمل بحيث يباشر الحرام، أما إذا كان الأمر محتملًا يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون فيجوز له؛ لأن الأصل السلامة.

سؤال: هل يجوز المعاملة في البيع والشراء والاقتراب مع من يعمل في المخدرات؟

الجواب: من عُلم أن ماله حرام ولا دخل له إلا الحرام فإنه لا يجوز أن يُعامل، ولا يجوز أن تُقبل منه هدية ولا نفقة إلا النفقة الواجبة. فإن من وجبت نفقته عليه له أن يأخذ نفقته والإثم عليه وليس علىٰ الآخر، ولو كان مستغنيًا عنها فاستغنىٰ لكان خيرًا له. أما إذا كان ماله مخلطًا فيه من حرام وفيه من حلال فإنه تجوز معاملته، إلا إذا علمنا أن المعاملة هذه إنما هي من المال الحرام.

سؤال: إن له أخًا ابتلي بالوسواس، حيث أنه يجد صعوبة في الوضوء، ولا يستطيع الصلاة، وتمر عليه أيام وهو علىٰ هذه الحال، وأحيانا يتحسن ويجاهد نفسه فيصلي. فهل يقضي ما عليه من الصلوات؟

الجواب: الشيطان إنما يريد أن يثقل العبادة علىٰ الإنسان بالوسواس، ويلبس علىٰ الإنسان أنه ناصح له وأنه يريد إصلاح دينه وإصلاح عبادته، لكن الحقيقة أنه إنما يريد أن يثقل عليه العبادة. ولذلك ما دخل أحد في الوسواس إلا ثقلت عليه العبادة. يبدأ أولًا يترك النَّوافِل، ثم يترك الجماعة، ثم قد يترك حتىٰ الفرائض. يقول ما أستطيع وهو يستطيع، لكن إبليس يثقل عليه العبادة. والحل هو ترك الوسواس بالكلية، لا تلتفت إليه ولا ترتب عليه شيئًا؛ لأنه والله لو كان حقيقة لما عذب الله عباده به ولقبل منهم دونه. فكيف وهو ليس حقيقة، وإنما من الشيطان. من ابتلي بالوسواس فليترك الوسواس وليهجر الوسواس، ولا يرتب عليه شيئًا. توضأ كما يتوضأ الناس ثم اذهب. يقول لك الشيطان: رجلك، يدك، جنة ونار، هذه صلاة ما هي لعب. لا تلتفت إليه، امض في سبيلك. يأس من هذا قال: خرجت ريح، خرجت ريح، ما تحس بجسمك يتحرك، الريح، تصلي وأنت خارج.. الريح. توضأ ثانية..؛ امض في سبيلك وصلّي. والله يا إخوة هذا هو الحكم الشرعي، وهو الذي ينفع. ولن يتخلص الإنسان من الوسواس إلا بهذا مع كثرة سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ، ودعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. لا تكن ضعيفًا أمام الشيطان يسوقك كما يريد. توضأ كما يتوضأ الناس ثم انصرف. والله ما يعذبك الله؛ لأنه كما قلت هذا لا يخلو من حالين:

إما أنه حقيقة، لكنه غالب، ما تستطيع أن تتخلص منه، فوالله ما كان الله ليعذب عباده وهو الرؤوف الرحيم بهذا الأمر.

وإما أنه وسواس، وهو الحقيقة أنه وسواس، وهذا لا يضرك، ولا تلتفت إليه، ولا يترتب عليه شيء.

وأما السؤال: هل يقضي؟ نعم يقضي الصلوات التي لم يصليها. يجب عليه أن يتوب إلىٰ الله وأن يقضيها. ويجب عليه شرعًا أن يترك الوسواس. كيف يترك الوسواس؟ الوسواس من الشيطان، يتركه بأن لا يرتب عليه فعلًا ولا تركًا. تقرأ القرآن، جاء إبليس يوسوس لك في الآيات، لا تغلق المصحف من أجل إبليس، إذا أغلقت المصحف يفرح إبليس. استمر واقرأ، ومهما قال، مهما قال اعتبره مجنونًا يتكلم. استمر واقرأ، ولا تناقش إبليس. لا تناقش إبليس. بعض الناس إذا أصيب بالوسواس ذهب يقرأ في الكتب. إبليس يفرح يعلم أنه تمكن منك. لا تلتفت إليه، لا ترتب علىٰ الوسواس فعلًا ولا تركًا. واستعن بالله، والله تشفىٰ منه. أقسم بالله تشفىٰ منه وأنت علىٰ خير. قد عالجنا كثيرًا من الموسوسين منذ كنت شابًا. والله هذا هو الواجب الشرعي وهو العلاج النافع.

وأما كما قلنا القضاء، فيجب عليه أن يقضي الصلوات التي تركها؛ لأنه تركها يعني بغير قصد الترك، فلا يكون كافرًا بذلك.

سؤال: أنا مقبل علىٰ عمرة إن شاء الله تَعَالَىٰ، وأمشي علىٰ كرسي متحرك كوني مبتور الأقدام حد الركبتين. فهل علي نزع الرجلين الاصطناعية حال الإحرام أم لا؟

الجواب: سلمكم الله تَعَالَىٰ والسامعين. أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكتب أجرك، وأبشر بالخير من الله إن كنت صابرًا، فالله إذا ابتلىٰ عبده فصبر شكره ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنعم عليه في الدنيا والآخرة. واعلم أن الفقهاء يقولون: العين المستعارة كالعدم. هذه قاعدة فقهية، العين المستعارة كالعدم. هذه الأطراف الصناعية كالعدم، لا حكم لها. ما تُغسل في الوضوء، ما تتعلق بها الأحكام. فوجودها بالجزمة بدون الجزمة كالعدم، لا تتعلق به الأحكام.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفقهنا في دينه. أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفقهنا في دينه وأن يستعملنا في طاعته، وأن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر.

والله تَعَالَىٰ أعلم، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد.